تكيّة البجاوي

مُستلهَمة من قصة شعبيَّة

منشورات عندليب

www.3ndleeb.com
info@3ndleeb.com
(+249) (916) (099) (333)
(+249) (122) (216) (333)

. . . . . .

فهرسة المكتبة الوطنية أثناء النشر - السودان

813.9624 مصطفى خالد مصطفى، 1998-

م خ. ت

تكيّة البجاوي: رواية/ مصطفى خالد مصطفى.- ط1. – الخرطوم: منشورات عندليب للطباعة والنشروالتوزيع، 2022.

156ص؛ 20سم.

ردمك ISBN 978-99988-806-1-0

1.القصص العربية – السودان. أ. العنوان.

. . . . . .

اسم الكتاب: **تكيّة البجاوي.**

الكاتب: **مصطفى خالد مصطفى.**

النوع: **رواية.**

مراجعة: **زياد محمد مبارك.**

تصميم الغلاف: **شركة هايد للحلول المتكاملة المحدودة.**

رقم الإيداع: **2022/467م**

. . . . . .

الطبعة الأولى 2022

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف والناشر©

الآراء الواردة بالكتاب تعبر بالضرورة عن رأي المؤلف

مصطفى خالد مصطفى

تكيّة البجاوي

رواية

تقديم

تقدّمِ هذه الرواية تجريبًا أنيقًا في تناوله للسيرة الشعبية المحكيّة في تراث شرق السودان؛ سيرة العاشقين (المحلَّق وتاجوج)، في تشكيل يجعل من هذه السيرة مرتكزًا تنهض عليه روايَة معرفيَّة اشتغل فيها السارد على وصف الأمكنة والبناء المتنامي للشخصيات والتفاعلات الاجتماعية البدويّة وما لدى القبيلة من عادةٍ وتقليد، ومفارقة في حالتي السلم والحرب، وحقيقة وخيال في أقاصيص تكيّة البجاوي؛ حيث تدور فناجيل القهوة وتُروى الحكايات التي تدور مع الفناجيل في ديار الحمران.

يتجسّدُ الصوت كائنًا مؤثرًا في تضاعيف الرواية، فالشبان يندفعون للحرب إن سمعوا الربّابة تعزف لحن (كريكوا) المشئوم. ويعدو لحن (شبابيت) –لحن القبيلة المقدّس– في خط الزمن لمئات السنين حين ينسرب من بين أصابع العازف. ويغنم الحمران ربّابة أعدائهم الهدندوة (شيقات) في حربٍ نشبت لأجل مقتل ناقة. ويستبدل الهدندوة السلاح الناري الذي لم تكن تلك البقاع تعرفه، بما في أيديهم من عاجٍ ورقيق. ويُعِدّون لاستعادة ربّابتهم ما استطاعوا من خيلٍ ورجالٍ وسلاح.

يبدو **المحلّق** كمرآة تعكس شخوصًا متعدّدة: الصيّاد، الراعي، الحكّاء، الشاعر، السكّير، الماجن، الفارس، قاطع الطريق،

العاشق، القوي، المنكسر، والمجنون. وتبدو **تاجوج** كنجمةٍ مُقمرةٍ أو حوريةٍ أسطوريّة تراءت له فنعِم واكتوى بها. دلق الشِّعر في آنية الغزل وسقى منها السامعين والرواة حتى ذاع عشقه لها وهيامه بها وما استطاع أهلها إلجامه. فانسابت في بحر الحكايات حكايته، وتناثرت في الآذان أشعاره. وحكت الألسن في تكيّة البجاوي عنه وعنها.

يتساوق الحفر المعرفي المُزجَى في خطاب روائي رفيع، مع المتعة في هذه السردية المكثّفة، ليصوّر فضاءً مجهولًا، غامضًا، ثريًا، وذا خصوصيّةٍ تحتكمُ إلى المكان في زمن الحكاية وعُرْف القبيلة وطبيعة البادية وطِباع أهلها. وعمَّا يطمح إليه القارئ في صفِّ الرواية حين يتساءل عن أية واحدةٍ تحوي المتعة المُراقة من براعة السرد والقيمة المعرفية المُضافة إليها. فها هي ذي (تكيّة البجاوي)، والتي تشمل أوراقها كل ذلك.

الناشر

" الناسُ في عناتر كالبجا تمامًا، ماؤهم القهوة وزادهم الحكايات"

البجاوي

الإرهاصات

" أحبُّ شيءٍ إلى الإنسانِ ما مُنِعَ"

قيس ليلى

1

الفرسانُ الأربعةُ يمتطون جيادَهم يقطعون الفلاةَ في حمأةِ القيظ، يُحاذون في سيرهم نهرَ القبيلةِ المعظّم نهرَ **سيتيت** والذي يعتبرونه نعمة خُصَّت بها قبيلتهم دون غيرها، يبحثون الآن عن صيدٍ ثمين قد يكون أحدَ أصَلَاتِ البحر والتي يحبون شيَّها أو وحيدَ قرنٍ أبيضَ سائب، وإذا كان هذا اليوم أحد أيام نجمِ سعدهم فسيصادفون أحد الأفيال الرماديَّةَ الكبيرة، وعد **عيسى بن الهجّان** أُختَه بأن يهديَها في زواجها إما جلدَ أصلةِ البحر أو عاجَ وحيد القرن الأبيض أو نابي فيلٍ رماديٍّ كبير. الفرسان يمتشقون حرابهم الحادّة ذاتَ الأعواد الصلبة وسيوفهم تغفو في أغمادها تنتظر أن يعترضهم عارضٌ أو قُطَّاع طرق والذين هم عادةً من الهدندوة. الفرسانُ الأربعة من خيرةِ أبناء القبيلة وأشجعهم وهم: **المحلَّق بن علي، النور بن اللمم، عيسى بن الهجَّان وضريس**، يرتدون سراويلهم القصيرة التي تنتهي إلى ركبهم عراةَ الصدور، تسترسل شعورهم الطويلة على ظهورهم أحيانًا وتُرقِصُها الريح أحيانًا فتبدو مع انطلاقها عكس الريح كأنها شعلة لهبٍ أسود، أجسادهم الصلبة تتمكن بثبات على ظهور خيولهم الأصيلة التي جاء نسلها العلوي من شِعاب **حضرموت** قبل مئاتِ السنين.

يصيح **ضريس** فجأة مشيرًا بحربته: اقبضوا الفيل التعيس يبدو أننا سنحضُرُ حنّاءَ **علي** باكرًا. ينحرف الأربعةُ عن مسارهم يتبعونه، خيولهم تثير العجاج على صفحة النهر، **المحلّق** يرخي لجام حصانه ويلكز بطنه فيزدادُ انطلاقًا على انطلاق، يتقدم على **النور بن اللمم** ويتجاوز **ضريس**، يفاجئهم من الخلف **عيسى بن الهجَّان** متقدمًا على ثلاثتهم. "الله يقطع عمرك"، يصيحُ **المحلق**. "طالق **بنت حمّاد** إن وصل إلى الفيل رجلٌ قبلي" يهتفُ **ضريس** ويطلق العنان لحصانه الأبرق، يتبادلون الصدارة، يقتربون من الفيل التعيس، تتعكّر صفحة النهر وتطير الطيور من ضفتيه، والقبيلة التي يقضي شبابُها حياتهم يتبارون في أي شيء ويتسابقون في كل شيء ويفخر كلٌّ منهم ببطولاته ومغامراته بل ويعتبر أنه النموذج المثالي للرجولة في القبيلة لم يكن من غريب أمرها أن ينبسط نفوذها على النهر وما جاوره لأكثر من خمسة عقود ولم يكن غريبًا أن تعمل لها جاراتها من الهدندوة، الضباينة، والبني عامر ألف حساب قبل الدخول معها في خلافات.

يستدير الفيلُ نحوهم وبغريزة البقاء يستشعر الخطر، الحراب تعكسُ أشعة الشمس فتتقد وتضيءُ شراهةً للقتل، والفيل الضخم ينفخ بخرطومه نفخة الصور الخاصة بموته، يرفع رجليه ويحط بهما على الرمل والعشب، ينجح **ضريس** في الوصول إليه أولًا ويشكُّ الحربة في رجله، يصل **المحلق** ثانيًا ويغرس حربته في لحم الرجل الأخرى ، كذلك يفعل **عيسى**

والنور مع الرجلين الأخريين فينهم الفيل بهستيرية وتسيلُ دموعه، يخرُّ مجندلًا، يتلقى الضربة القاضية من **محلق**.

2

العريس **علي التقاوي** في قطيته مع أقاربه يقيمون له حفل حناء تلك الظهيرة، يأتي صوت الريح الصيفيَّة الجافة مداعبًا القش الناشف الذي سُقفت به القطية، تجلسُ حوله خالاتُه يرقصن بالسيف على نغم الربابة، آلتهم الموسيقية المعظمة التي نُسجت أوتارُها من أعصاب ظهر البقر، والعريس ممدد على سريره العالي يرتدي سروالًا وصديريًّا جديدين جيء له بهما من **سواكن** وأمه تفلي شعره وتقتلع القمل، خالته الصغرى تخضب رجليه بالحِنّاء وتهلل بِشرًا بطائر الخداري وهو يشقشق على سقفِ قطيةٍ أخرى قريبة. العرّافات الثلاث للقبيلة رصدن نجم سعد للعريس بأنه سيشرق ليلة الثاني عشر من ربيع الأول لذلك قررّ أن يقيم عرسه ذلك اليوم. الجميع يقيمون حفلًا راقصًا في تلك القطية المبنية بالطين والمسقوفة بالقش، وكما جرت العادة تتراقد قطاطي الحمران بوداعةٍ على مقربةٍ من نهر **سيتيت** تفترش الأرض الخضراء الوعرة. **علي التقاوي** لا يصدق ما يجري فقد فاز بـ**السمحة بنت الهجّان** بعد لأي ومعارضاتٍ طويلة وعريضة من أهلها لأن جدَّته من قبيلة الشكريَّة.

يتجهّم وجه أم العريس فجأةً، تُكتم الزغاريد، يعلو من بعيدٍ صوتُ ربابةٍ تعزفُ لحن الكريكوا وهو نذيرُ سوء وخطر،

لم يتمهّل **علي التقاوي** وهبّ من سريره واقفًا، "انتظر يا ولدي أن تجفّ الحناء"، نادته أمه. تقلّد **علي** سيفه وغطّس رجليه في حوض الفخار الكبير الذي يشرب منه الطير، فركهما جيّدًا حتى سالت بقايا الحناء من رجله ثم اندفع خارجًا، وبالمثل من القطيات الأخَر يخرجُ الشبان متقلدين سيوفهم وحرابهم، والفرسان الأربعة أدركهم اللحن وهم في طريق عودتهم بعد رحلة الصيد الثمينة فسارعوا، لحنُ الكريكوا يتشاءم منه الكبار ويكرهون سماعه، أما الشبان فيجدون حماسةً ومتعةً ما بعدها متعة في الاستماع إليه. وضع كلٌّ من الأربعة ما غنمه من الفيل جانبًا، لفّ **عيسى بن الهجّان** أخو العروس نابَي الفيل بخرقةٍ كبيرة من الجلد ركنها أمام إحدى القطاطي، انضمّوا للحشود المتجمهرة أمام بيت **الزعيم**. اعتلى **الزعيم** الستيني خيله، نحيلَ البنيةِ كان لكن مع قوة، يكسوه وقارُ الشيوخ، أشيب اللحية والشعر، أمامه يقرفص الشباب على التراب، وخلف الشباب تتحلّق الفتيات والنساء، أمُّ علي التقاوي تشفق على ابنها العريس وتقلّب عينيها بين الفرسان بحثًا عنه. جسّ **المحّلقُ أوهاجَ البجاوي** بائع القهوة الذي كان يعلّق حاملًا خشبيًّا للفناجيل والأكواب بحبلٍ إلى رقبته عن سبب هذا التجمهر الفجائي، "أحد الهدندوة قتل ناقة صبيحة"، قال **البجاوي**.

أغاني البنات ووجوههن المليحة تزيد حماسة الشبان اضطرامًا على اضطرام، يرتدين ثيابًا حمراء وصفراء وخضراء ويرسلن شعورهن ضفائر كثيرة تصل إلى أكفالهنّ، بعضهنّ يزينّ

ما بين حاجبيهنّ بوشومٍ صغيرة والبعض مدقوقات الشفاه وأخرياتٌ لا هذا ولا ذاك لم تُدق شفاههن ولم تطُلهُنّ الأيادي الواشمة، تتوسطهن **تاجوج** حسناء الحمران، **لمحها المحلّق** ابن عمتها فبرقت بعينيه لمعةُ اشتهاء. قال **الزعيم محمد علي الهاكين** وهو يمسّد لحيته البيضاء المسترسلة بيد ويتقلّد بالأخرى حربته "منصورة": "خالتكم **صبيحة** يا رجال كانت ترعى في خلاء **عناتر**، أحد الهدندوة قتل ناقتها خطأً وزعيم الهدندوة قال سيعوضها بأربعة نوق و**صبيحة** لا تريد إلا ناقتها أو الثأر كي لا يرعى الهدندوة في خلاء **عناتر** مرةً أخرى، وسنقوم بما يجب، هالله هالله يا رجال". وكما تنقض صقور الجديان انطلق الشباب، ما تساءلوا وما ترددوا، انطلقوا وسط أغاني البنات وزغاريد الأمهات، انطلقوا يتقدّمهم المحلق بحصانه الجُماني يصرخ بحماس ويلوّح بسيفه، انطلقوا يضربون صدورهم العارية ويصيحون وكلٌّ منهم يسعى أن يكون نجم المعركة اليوم والخيول تتبارى برشاقةٍ في سباقٍ مرح على الأرض المنبسطة والجبال حولهم تردد الصدى.

3

تحت شجرة الأندراب الضخمة جلس **المحلّق** وحوله الصبية والصبيّات، تحت شجرة الأندراب تتناسل الحكايات وتنمو، سيتناقل الجميع ويعتمدون رواية **المحلّق** حول ما حدث مع الهدندوة في الثأر **لصبيحة** وناقتها، سيتوارث الحمران هذه الحكاية عبر أجيال. مسّد **المحلق** شاربه الذي يتدلى على زوايا فمه قبل أن يبدأ، رفض الصبية والصبيات الذهاب لحضور حنّاء **علي التقاوي** تلك الليلة حيث الرقص والطرب. انطلق صوت **المحلق** آسرًا الأسماع، وجوه الأطفال خلف حلقة النار تتعطّش للحكي، "وصلنا ديار الهدندوة قبل الغروب بقليل وقد حاول الحَلَنْقة اعتراض طريقنا لحل المشكلة بطريقةٍ وديَّة، أظن الهدندوة طلبوا وساطتهم لنا، وبما أن أخاكم **المحلّق** كان قائد الفرسان فقد رفضتُ المساومة وقلت لهم إن الأمر محسوم والكلام سيكون كلام السيوف والحراب. عندما وصلناهم وجدنا رجالهم يحيطون بالقرية ينتظروننا، كانوا غيورين على كرامتهم وسمعتهم بين القبائل، قاتلناهم أشدّ قتال فرّ جزءٌ منهم ليعيد الكر وجزءٌ لقي حتفه، لكنّ..."، وقطع من بعيد صياحُ **النور بن اللمم** صوتَ **المحلّق**: "العريس ينتظرك للحناء يا **محلّق**"، التفت الصبيةُ والصبيّات مغضبين وأشاروا **للنور** أن يذهب وأشار له **المحلّق** بأنه سيلحقه. طالبتْهُ **ضُحى** –

الأمة الصغيرة التي تخدم في بيته– أن يواصل، ومن حِجْر إحدى الصبيَّات جرى طفلٌ صغير ناحية **المحلّق**، كان منكوث الشعر مرتديًا حلقةً من الفضّة في أذنه اليمنى يسمونها الفدوة، أجلسه **المحلق** خلف عنقه وأنزل رجلي الطفل على صدره، تشبث الطفل بشعر **المحلق** الطويل وبدأ يهزّ جسده اهتزاز الفرسان على صهوات الجياد فضحك الكل وهبّت نسائمُ عليلة من جهة الجبال تحمل رغاء جِمالٍ بعيدة، نهض **المحلّق** حاملًا الصبي وقفز به وسط الدائرة على تغريد البنات القادم من حفل حِنّاء **علي**، نهض الصبيان يحجلون ويرقصون يهزّ بعضهم عصيّهم التي يرعون بها، والصبيَّات يرمين شعورهن يمنةً ويسرى ويمددن صدورهن ويسحبنها، وأقاموا تحت الأندرابة حفلًا راقصًا آخر، وبقوا هكذا إلى أن فتروا واستراحوا. "ما الذي حصل بعد أن وصلتم ديار الهدندوة؟"، لا زالت **ضُحى** تصر على استكمال القصّة فقال **المحلّق** شافيًا غليلها: "الذي حصل يا ضُحى أننا قتلنا منهم عشرة وغنمنا ثلاثين جملًا بُشاريًّا تقول يا ليل، العشرة الذي ماتوا قتلتُ منهم خمسة وحدي وعطّلتُ عشرةً آخرين، كانوا أشدّاء يا **ضحى** الواحدُ فيهم بحجم الخرتيت، سلبناهم نساءهم وأطفالهم وقيدناهم كالأغنام في حظيرةٍ كبيرة وأوصى خالي **الزعيم** أن نحميهم من الوحوش التي قد تأتي من غابات زهانة أو أحراش عرّة الفيل فأمر أن يُتركوا تحت حراسة عبيدنا وأمر العبيد ألا يسمحوا لأي ذكرٍ أن يقرب الحريم حتى لو كان كلبًا وكل من يخالف يُقتل، إلى أن جاء رجالهم يطالبون بأعراضهم وأطفالهم ووهبناهم جزءًا من بهائمهم، غنمنا

(شيقات) ربابتهم الشهيرة وقد غنيتُ بها أمامهم، تجدونها في بيت خالي **الزعيم**". لاحقًا، عندما يذهب الصبية والصبيّات **لعلي الهاكين** ابن **الزعيم**، سيحكي لهم ذات الحكاية مع اختلافٍ واحد هو أنه من قتل خمسةً وأصاب عشرة وغنّى بربابة الهدندوة فيحارون ولا يدرون من يصدقون.

4

الخمر تستر العقل وتكشف السرائر، والأصدقاء الستة اجتمعوا في خيمة العريس يتنادمون ويتبادلون أشعار الهوى والخليلات، **عيسى بن الهجّان** أخو العروس غادر الجلسةَ في بدايتها متعلِّلًا بأن لديه مشاغلَ والتزامات، هبّت عبر نافذة القطية نسائم باردة تحملُ عبق نهر **سيتيت** ورائحة المطر الذي كان ينزل في جبال التاكا[1] بغزارة معلنًا احتضار صيفٍ طويل ونهاية الصيف في **عناتر** تحملُ معها متاعب كثيرة. تلك الليلة عُقرت عشرون ناقة بشارية وأوقدت النيران حتى أن من يرى القرية من بعيد في ذلك الليل يخال أن بها حريقًا، توافد الزوّار من شتّى عوائل الحمران: محمداب، حقيناب، شرفاء، ضراراب استعدادًا للعُرس صباح الغد. شرع **المحلق** ينشدُ شعرًا يصف فيه خليلاته الليليات وجاراهُ البقيّة يصفون أجساد بائعات الهوى اللائي التقوا بهنّ في خلاء زهانة، حتّى **النور بن اللمم** فللخمر عمائل. رغم أن الحجّة التي تذرّع بها **المحلّق** لمغادرة الجلسة لم تكن مقنعة بل وأكدت لهم أنه في سبيله لإحدى الخليلات، رغم ذلك تظاهروا بتصديقه وبينما كان يركب حصانه شاغله **النور بن اللمم**: "سلّم على **نورا أم شليخ**"،

[1]/ جبل عند مدخل أرض الفيل (مدينة كسلا حاليًا) به نبع مائي وتحفه الخضرة، نسجت حوله القصص والأساطير.

فضحك **التقاوي وضريس**، تنحنح **المحلق** على جواده وتبسّم وانطلق دون أن يردّ عليهم.

تحتَ أضواء النيران البرتقاليّة لمح **تاجوج** وخادمتها النوبية **أميرة** تعودان من قطاطي أهل العروس تحملُ عنها خادمتها برش الصندل الأحمر والبخور وهي تمشي بسرعةٍ وخفّة، لم تجُد عليه بنظرةٍ أو سلام كأنها ما عرفتْه يومًا وكأنه ليس ابن عمتها. "السلام سُنّة والرد فرض يا بنت الأكابر"، قال **المحلّق**، تريّثت البنت وخادمتها، أدارت **تاجوج** ثوبها على نصف وجهها ولم تلتفت وقالت: "مرحبًا بابن العمّة وفارس الحمران، ما لاحظتك كنتُ مستعجلة"، شدّ **محلق** لجام حصانه و فكّر بسرعةٍ أنّ جمالها ليس جمال خليلات، إنّ بها هالةً من قداسة وتاجًا من وقار وجاذبيةً مبتلعة، سألها عن أحوال أبيها وأمها، أحسّ في ردودها المقتضبة شيئًا من ضيقٍ وعجالة، ذهبت وذهب معها عقله.

صاح **المحلّق** بأعلى صوته مغالبًا أصوات الربابات والنحاس والريح الجنوبيّة:

فص ألماظ مركّب فوق مَجمّر[2]

فص عينيكِ يا ام خشمًا منمّر[3]

و**تاجوج** تتراقص ظلالها على التراب بجنون.

---

[2]/ ألماظ: ألماس. مجمّر: خاتم الذهب.

[3]/ الخشم: الفم. منمّر: حلو المذاق.

5

نهايةُ الصيف في **عناتر** تحملُ معها متاعب كثيرة فالخريف على الباب و**عناتر** طينيّة والارتحال الموسمي للحمران حان وقتُه فاجتمع أعيان الحمران في خيمة الضيافة التي تُعقد فيها دومًا اجتماعات القبيلة، يتربعون على وسائدهم في مجلسٍ دائري تتوسطه نيران مشعلةٌ في قدحٍ فخاريّ كبير، العبيدُ يتوافدون عليهم بالماء وأطباق الفاكهة، و"منصورة" حربة **الزعيم** تتوسد الأرض أمامه. فور اكتمال الدائرة تنحنح **الشيخ أبو سهمين** في مكانه بعد أن قشّر برتقالةً في طبق الفواكه أمامه وقال: "يا رجال القبيلة عندي اقتراح للمنطقة التي يمكن أن نقضي فيها الخريف هذا الموسم وأريد مشورتكم فيها، ما رأيكم بالقرقف؟ آمنة من الوحوش وبها مراعٍ كبيرة للبهم وأرضها صلبة لا تتأثر بالمطر"، ثم رمى زعماء الشرفاء والحقيناب والضراراب بنظرةٍ فهموها فأيدوا كلامه. وكالعادة يأتي **محمد علي الهاكين** بقرارٍ جديد لم يكن في بال أحد فقد قال معارضًا كلام **الشيخ أبي سهمين**: "إذا سلِمنا يا **أبا سهمين** من خطر الوحوش فلن نسلم من خطر البشر. هل نسيتم أنّ القرقف قريبة من ديار الهدندوة؟ خلّنا من الهدندوة، هل نسيتم أنها ليست بعيدة عن الأحباش؟ غدًا يهجمون علينا وكل من له معنا ثاراتٌ قديمة وما

أصحاب القبور العالية[4] عنكم ببعيدين، هم أول من دخل معنا في حروبات منذ أن وطأ أجدادنا هذه الأرض وإلى اليوم إذا وجدوا فينا فرصة لن يضيعوها، حينها ماذا نصنع في القرقف البعيدة عن **عناتر** محلنا؟"، مال المحمداب إلى رأي **الزعيم** لمصالح خاصّة ودعموه. "إذًا ماذا ترشّح يا حضرة **الزعيم**؟"، سأله **أبو سهمين** فقال **محمد علي** وهو يخلل أصابعه في لحيته البيضاء كأنها قطعةٌ من سحاب الصيف: "أرشّح أسير كرتب، آمنة وبها ما لا بأس به من المراعي، صحيحٌ أنها ليست كمراعي القرقف يا **أبا سهمين** لكنها تكفي البهائم، أضيفوا لذلك أن أسير كرتب قريبةٌ من خور **عناتر**". كنهاية أي مجلس يمتثل الجميع لرأي **محمد علي الهاكين** بعضهم عن تراضٍ وبعضهم عن مصلحة وبعضهم كي لا يشق وحدة القبيلة واجتماع رأيها **كأبي سهمين** وحلفائه.

يخرج **أبو سهمين** من الخيمة يعض شفتيه، يسب **الهاكين** ونسله، يسمعه **الزعيم** وهو خارج من الخيمة ممتشقًا "منصورة" ولا يظهر اهتمامًا، يقول له أخوه **الأصلح أنف البعير** بصوتٍ مبحوح: "لو سمعك يا **أبا سهمين** لعلّقك من مناخيرك مأكلةً للصقور".

[4]/ قوم بدائيّون يرتدون جلود النمر ويزينون شفاههم بحلقان الذهب والفضّة وهم بقايا الاسكندر المقدوني الذين أوفدهم لبلاد كوش ورفضوا العودة لأرض مصر.

6

الوجودُ كله في اشتياق، السماء والأرض، الغيم والنبت و**المحلق ونورا**، دسّت السماء زينتها تلك الليلة، ربط كلّ من **محلق ونورا** دابته إلى وتدٍ مغروس في الأرض الرطبة وفي قلب تلك العتمة كان **المحلق** يرى **نورا** تفيضُ جمالًا وبياضًا، تلف حول خصرها بإحكامٍ ثوبًا ضافيًا وتلف وشاحًا قطنيًا حول نصفها العلوي وشعرها الأسود ينتهي عند نهديها المنتفخين، حملها **المحلق** بين ذراعيه ودار بها إلى أن فقد توازنه وسقطا على الأرض، عبثت بشعره وباغتها محاولًا سرقة قبلةٍ لكنها انتفضت وركضت بعيدًا في الخلاء، سحبت سيفها من رحل ناقتها وقالت: "إن كنت تريد فاغلبني أولًا"، كان الجوّ منسمًا والتراب بارد، بوثبةٍ واحدة صار **المحلق** أمامها قائمًا، سحب سيفه بسرعة، تصادما، وكانت رشيقةً خفيفة الحركة طازجة الجمال لينةً كالخيزور رغم حياتها الخشنة منذ الطفولة، اتخذها **المحلق** طيلة شهرين وهو الذي كان استبدال الخليلات عنده كخلع الصندل أو انتعاله، توجّه له ضربةً فيصدها ويباغتها بهجمةٍ فتتفاداها، يزداد هبوب الرياح ويتبعثر شعرها حاجبًا عنها الرؤية فتربطه بحركةٍ سريعة، تقفز وتحط، تأتيهم أصوات ضباع الخلاء قريبةً مرة وبعيدةً مرةً أخرى، داهمها **المحلق** بطرف سيفه، ندّت عنها آهة، أمسكت يدها وتكورت على التراب

مولية ظهرها له، اقترب منها لتفقدها: "**نورا** ما الذي جرى؟"، انحنى نحوها ثم وبدون أن يشعر وجد نفسه عاليًا ثم مطروحًا على الأرض، دفعته بظهرها ناهضةً بقوة، وقفت عند صدره موجهةً سيفها نحوه وهو على الأرض مشدوه وقالت له: "متى ستتزوجني يا شيطان؟"، فأجابها **المحلق** ضاحكًا: "زواج؟ أنا لا أتزوّج".

٧

عند الصباح وعلى أصوات الربابات والنحاس تزيّن الفرسان بحلقان الفضة، ارتدوا سراويلهم وقمصانهم التي تشبه الجلابية، الفتيات تزيّنّ بثيابهن الملوّنة والمزركشة يُزيّن شعورهن بسلاسل الذهب، عُزف على الربابات لحنُ القبيلة المقدس (شبابيت) الذي ألّفه **علي الهاكين ابن الزعيم** بمساعدةٍ من زوجته **رحمة أخت المحلّق**، سيعيشُ هذا اللحن مئات السنين القادمة وربما إلى أن تقوم الساعة. **المحلق** وحده لم يكن ضمن تلك الضوضاء، لم يستيقظ منذ الفجر كي يستعد لرؤية محبوبته في حفل اليوم مثل أترابه، ومن ليست له محبوبة كان طامعًا في لفت أنظار **تاجوج**، **المحلق** سابحٌ في ذكرى خيالاته لليلةِ أمس، دهمته أمه بصبها ماء القلة البارد على أم رأسه فانتفض كالملدوغ، صدمته أشعة الشمس المقتحمة للقطية عبر فتحة الشبّاك، أغمض عينيه لفترة، أحس بخدر عجيب وصداع ينقر رأسه نقر طائر (أب تكو) لجذوع الأشجار، سقط على وجهه، ركلته أمه وصاحت به: "قم على طولك يا مرضان، الناس في الخارج تتزوّج والدنيا كلها فرح وأنت نائمٌ للضحى؟ جنازة إن شاء الله، أين كنت أمس؟"، فتح **المحلق** عينًا واحدة، قال بصوتٍ فاتر: "سأبارك لهما فيما بعد، الآن يا أمي أريد أن..."، وقبل أن يتم كلامه جذبتْه من شعره إلى أن قام على

طوله "قلت لك قم واجهز كي تلحق العقد والوليمة، **ضحى** جهّزت لك المياه والملابس، وبالمرّة نبحثُ عن عروس عسى ولعلّ أن تعقل، انظر **لعلي** زوج أختك الناس لا يقولون فيه كلمة، أما أنت..."، ثم ذهبت لتتزيّن، أما هو فاتكأ على الحائط يتحسس بيده آثار أظفار **نورا** على ظهره، قضيا ليلةً طويلة تحت المطر، سكِرا بكأسَي الخمر والغرام، وركبا بعضهما إلى أن تجاوبت الديكة، يظنها عملت له سحرًا، هي بالنسبة له لا تتجاوز كونها خليلةً من الخليلات الكُثر، ومع ذلك لا يستطيع مفارقتها أو مفارقة ذكرياتهما في خلاء زهانة، كانت ماهرةً بحق، لكن، فجأةً وبلا مقدمات، برق في ذهنه وجه **تاجوج** كالصبح المبين فاستنشط.

8

"يا حافظ يا حفيظ، مثل كل مرّة عدد العيون والعاشقين في ازدياد وسعادة كبيرة تنتظرك في القريب يا **تاجوج**، هناك عريس في الطريق ويقول الودع هذه المرّة إنك ستتزوجينه"، قالت العرّافة **سرو** وهي أشهر عرافات الحمران الثلاث، تقرأ الطالع بالأصداف منذ أن كانت طفلة وطيلة هذه الفترة لم تتنبأ بشيءٍ إلا وحدث، دُهشت كلٌّ من **تاجوج** وأمها بالخبر، تأكدت **أم تاجوج** ألا أحد قريب ثم سألتها بصوتٍ خفيض: "وهذا العريس يا **سريوة** من رحمنا أم من بعيد؟"، فأجابت: "والله يا ست الأكابر إنه من قريب، قريب جدًا"، "أهو من أصحاب المال والجاه؟"، سألت **أمُّ تاجوج** فأجابتها **سرو**: "اسمه له شنّة ورنّة، الجميع يخافه"، راجعت الأم في ذاكرتها أولاد الخؤولة والعمومة، تستبعدُ من تقدم قبل ذلك ورُفض محاولةً أن تتوقع من القادم. "ألم يقل لك الودع اسمه؟"، سألتها **تاجوج**، "اسمه ظاهر ولن أقوله دفعًا للعارض والنجبهة الأفضل أن تنتظري يا عروس"، قالت **سريوة**، اعتدلت **تاجوج** في جلستها وقالت: "اسمعي يا **سريوة**، لا أريد أن يعلم أحدٌ بهذا الخبر"، "لساني مقدور عليه فلتقدر **حاجة حفصة** على لسانها"، أجابتها **سرو** وقالت **أم تاجوج**: "**حفصة** يطرشها لم تسمع ولم ترَ". هاهي **تاجوج** الآن أمام مرآتها المدوّرة ذات المقبض العاجي تمشط لها **أميرة**

الخادمة شعرها وتدهنه بزيت (الكاركار)، "قلبي يقول لي يا **تاجوج** أن عريسك سيجدك اليوم"، "الزواج مسئولية يا **أميرة**"، "أنتِ قدر هذه المسؤولية يا **تاجوج**"، "من سيكون يا ترى؟"، "الله أعلم، لكن صاحب النصيب يكون الله راضيًا عنه في العالمين"، "لا أرى نفسي بهذا الجمال الذي يصفونني به"، "والله يا **تاجوج** لو كان لهذه المِرآة لسان لنطقت بأن وجهًا كوجهك لم يقع على مِرأةٍ من قبل، تبارك الله أحسن الخالقين". وضعت **تاجوج** مرآتها جانبًا والتفتت **لأميرة**: "دعيني أنا يا **أميرة**، أنتِ جاوزتِ الثلاثين ولم نفرح بكِ بعد"، "أنا متأكدة أن النصيب سيصيب، و**شنشروت** الحرامي سيعود من أرض مصر حتمًا ويتزوجني كما وعدني"، "لكن غيابه طال"، "تأخرنا على العرس يا **تاجوج**!".

9

الضيوف هم أصول **علي التقاوي** من قبيلة الشكريّة والذين يغسل لهم الخدم أياديهم استعدادًا للإفطار، والراقصون هم أصحاب **التقاوي** والذين يهيجون طربًا ويتبختر هو بسيفه وسطهم، والمغنيات هن صويحبات **السمحة بنت الهجّان** واللائي فترت حناجرهنّ من طول الغناء وشدّته، ترقص وسطهن السمحة بالسيف. أتى الضيوف من شتى عوائل الحمران على اللحوم نوقًا، عجولًا وضأنًا وشربوا حتى أُترعوا وسكروا حتى خطرفوا، **تاجوج** دخلت الدائرة لثوانٍ وغادرتها خاطفةً الأنظار، لم ترقص حياءً، لو رقصت ربما تفتح القطاطي عيونًا كي ترى بدائع رقصها، وقد قطعت عهدًا على نفسها ألا ترقص إلا لزوجها، أبوها أوصاها ألا ترقص يوم وفاته أبدًا ولا حتى بمنأًى عن الناس[5]، **والمحلق** من بين هؤلاء كان يجلس بعيدًا محمر العينين، كل من رآه أدرك أنه صحا من نومةٍ هانئة قبل قليل، بارك **لعلي** وأهله، رقص قليلًا بحيويةٍ متكلفة، شاغل صديقه **النور بن اللمم** وحثه على الرقص وسط الدائرة وخلع جلابيته لكن **النور** أبى، ذهب لمجلس الإفطار والصداع يطبق على رأسه ليتناول شيئًا يقيم به صلبه **فنورا** امتصت كل طاقاته ليلة أمس، وجد هناك **عيسى بن الهجّان** يجلس منزويًا

[5]/ كان لنساء الحمران رقصة خاصة عند موت عزيز يؤدينها حِدادًا وعلى نَغَمٍ حزين من الربابة.

يتلقّى المباركات بابتسامةٍ صفراء، "من يراك يا **عيسى** يحسبك في عزاء، قم يا أخي وارقص مع الشباب"، رد عليه **عيسى** بسرعة: "وماذا يقول الناس عنّي؟ أخته سوف تُركب وهو يرقص ويهرّج؟"، تلك اللحظة عندما رفع **عيسى** عينيه لرؤية **المحلق** لم يجده ودار برأسه في فضاء المجلس، باغتته ضحكة **المحلق** والتي انطلقت كالسهم لا يمسكها شيء، كان **المحلق** على الأرض يضحك بجنون، ضحك حتى تشنجت شفتاه وسالت دموعه، كل الحضور ظنّوا أن عفريتًا قرصه، ركله **عيسى** حتى يسكته لكن **المحلق** لم يستطع حبس ضحكاته، يستكتمه **عيسى** الخبر ويطمئنه **المحلق**، لكن في المساء وبعد انتهاء الحفل سيضحك بقية الشباب أيضًا، سيُحكى الخبر **لضريس** و**ضريس** سيحكيه **للنور**، والسّر إذا جاوز النفس ذاع. ترك **محلق** الأكل وجعل يبحث عن **ضريس**، يشاغل الأطفال في طريقه ويقرص ورك خادمةٍ على حين غرة فتجزع جافلة وتندلق منها ملوة الذرة فتطير الحَمَامات وتهدل، وبينما هو يتجاوز بيت خاله توقف فجأة، كانت **أميرة** تُبرك الجمل، مال الهودج ميلاتٍ خفيفة يمينًا ويسارًا وعندما استقرّ على التراب ترجّلت عنه **تاجوج** وأمها، أسقط بين يديه عندما رآها تتدلى بكسلٍ ظبياني. "مرحبًا خالتي **حفصة**، مرحبًا **تاجوج**"، "أهلًا يا **محلق**" ردّت **حفصة** ببرود: "الحفل لا يزال في بدايته عسى خير لماذا ترجعون باكرًا"، قال وعيناه تتذبذبان بين **تاجوج** وأمها: "كلام خالك وأنت تعرفه جيّدًا، افتحي الباب يا **أميرة**"، ثم انسربت البنت مع أمها ولم تحادثه بكلمة.

لماذا أصبح حضورها الآن قويًا، لماذا يلاحظها الآن؟ معظم حياته الماضية كان في الخلاء يمارس مهنته في قطع الطرق حتى عُرف بين الكثيرين **بالمحلّق الهمباتي**، و**تاجوج** لا تخرج من بيتها إلا لثلاث: مرض أو موت أو عرس، وما أطول أعمار الحمران وما أشد صحتهم! أما الأعراس فمن موسم إلى موسم، يتذكرها يوم وفاة أبيه، كانت لا تزال صغيرة ولم يكن تنّور جمالها قد فار بعد، الآن استوت ونضجت، تمشّت فيه رعشة عندما سمع والدها **محمد علي الهاكين** يناديه.

10

عنقك من الوَتَرين شبرين حساب[6]

نهدك طبلة حُق ما قالوا شاب[7]

---

[6]/ كنايةً عن طول العنق.

[7]/ الحق الجلد الأحمر المنقوش بالألوان. وكله مما أنشده المحلق في تاجوج.

11

انتهى الزواج وهدأت الأصوات، ونسائم الخريف تأتي زخّاتٍ زخّات من خلاء **زهانة**، سمع الكل فجأة الربابات تصدر لحن الكريكوا فاندفع الشباب والأطفال من القطاطي يحملون مشاعلهم وخلفهم الشيوخ والنساء، توقف كل شخصٍ عن عمله تلك اللحظة، **علي التقاوي** توقف عن مؤانسة عروسه في قطيتهما الجديدة في بيت حماته، واللحنُ أعاد **المحلق** من عوالم شروده، و**النور بن اللمم** استعجل حلب اللبن من ناقته ووضعه أمام والدته العمياء وخرج، وفي قطيةٍ داخل بيت **الزعيم** كان **علي الهاكين** يهم بوطء زوجته **رحمة** لأول مرة منذ زواجهما قبل عام، عامٌ كامل وهو ينتظر أن يخلو بها، عام كامل وهو ينتظر مغادرة بيت حماته، لكنه عندما سمع الربابات عقد تكته وهب، لعن الكريكوا والعادات والتقاليد، وكالعادة يستقبل **الزعيم** الجميع على صهوة جواده ممتشقًا منصورة، أرسل لزعماء عوائل الحمران أن يبعثوا بفرسانهم، توقع الجميع أن يكون الاجتماع بخصوص الهجرة الموسمية وقد كان.

قعد الفرسان في الساحة الممتدة أمام بيت **الهاكين** وحضر الاجتماع بعض أعيان ومشائخ العوائل الأخرى، عرض عليهم **محمد الهاكين** نتائج اجتماعه في خيمة الضيافة مع الزعماء الليلة الماضية ووضح لهم خط المسير هذه المرة، سيُقسّم

الفرسان إلى ثلاث فُرق: الدوار، الرفيق والمهاجرون. أما الدوار فهم أقل الفرق عددًا وأكثرهم عتادًا يتقدمون المهاجرين ليفحصوا الطريق أمامهم وينظفوه من الوحوش واللصوص، وأما الرفيق فهم من يمكثون في القرية مع النساء والشيوخ والأطفال يؤدون واجب الحراسة والزراعة، والمهاجرون يرتحلون مع البهائم بحثًا عن الكلأ والحشائش. يتم اختيار الرفيق عن طريق القرعة لأن معظم الشباب يفضلون البقاء في فريق الدوار والمهاجرين، كثيرًا ما كان يخرج اسم **النور** مع الرفيق وهذا يريحه ويسعده لأن أمه لا راعي لها غيره، و**المحلق** كان يعرف ذلك، ولذلك وعندما يكون **المحلق** مع الرفيق ويأخذ الحظُّ **النورَ** إلى الدوار أو المهاجرين كانا كثيرًا ما يتبادلان، ولكن هذه المرّة سيتمنّى **المحلق** أن يكون مع الرفيق، وعندما ناداه **الزعيم** صباح الحفل اليوم أخبره بموعد الارتحال وهو فجر الغد وخشي **المحلق** أن يكون **الزعيم** قد عيَّنه بذلك ضمنيًا قائدًا للدوار، ولم ينته الاجتماع إلا وكل فارسٍ يعرف موقعه، **فالمحلق** و**ضريس** و**النور** مع الرفيق، و**علي الهاكين** و**عيسى الهجّان** مع الدوار، و**التقاوي** العريس مع المهاجرين.

لعن **علي الهاكين** حظه كثيرًا ولعن الخريف، دخل قطيته وأخبر **رحمة** بأنه من المسافرين فجرًا مع الدوار، سيغيبُ لثلاثة أشهر ولديه ليلةٌ واحدة عليه أن يؤدي فيها واجبه على فراش الزوجية لأول مرة، جلس قرب **رحمة** على فرش الوبر، قالت له أن يبادل أخاها **المحلق** فرفض بإصرار، جلسا حائرين

لبرهة يعيدهما صهيل الخيل خارج القطية من شرودهما، مع كل صهيل يضطرم صدر **علي**؛ الصهيل يذكره بالارتحال، "هل في الدين ما يقول إن الرجل يجب ألا يمس زوجته إلا بعد عامٍ من الزواج؟ من أين جاءت القبيلة بهذا الكلام؟"، قال **علي** مستاءً، "صبرنا عامًا لنصبر ثلاثة أشهر أخرى"، قالت **رحمة**، "لا أستطيع أن أصبر يا **رحمة**"، "إذًا سآتي معك" ونهضت تلملم ثيابًا لها فسقط ضوء الشعلة الأصفر على وجه **علي**، "مجنونة؟ أأنت مجنونة يا **رحمة**؟ ستذهبين للبقاء مع أمي و**تاجوج** ريثما أعود". نهض **علي** من الفراش وانتصب أمامها كالجبل، أمسك معصمها وتوسّدت صدره المنفوخ المشعر وسمعَت حسيس أنفاسه، "سأشتاق إليك يا حبيبي يا **علي**"، فكّر **علي** مليًا ثم قال: "جهزي عطرك وزيتك يا **رحمة**"، "الآن؟"، "الآن". لفّت عطرها وزينتها وزيتها بخرقةٍ قديمة "أين سنذهب؟"، سألته **رحمة**، لم يمهلها لتبحث عن صندلها وركبت خلفه حافيةً ثم انطلقا نحو الخلاء، هناك وفي خيمة أحد البدويين التي استأجرها **علي** قضيا أحلى وأطول ليلةٍ في حياتهما.

12

من خلف جبل **التاكا** تطلع الشمس، يستقبلها أولًا الأحباش في جهته الشرقيّة ثم البجا في جهته الغربيّة، واليوم تسطع الشمس بقوة يراها سكان جبل **أسير سلالات** ولا يحسون بحرارتها لعلوهم التضاريسي، تخترق أشعتها الغيومَ القادمة من الشمال، تتقافز الغزلان بحثًا عن الغدران والينابيع حول الجبل، صقور الشاهين تقطع رحلةً طويلة في سبيل البحث عن الأسماك في نهرَي **باسلام** و**سيتيت**، من يرى الشمس لا يصدق أن الصيف يحتضر، تتعرى الأشجار وتصفرُّ أعشاب السحا والخافور والويل المدمج، تكثر الوحوش في غابات زهانة ويكثر معها الضحايا، وفريق الدوار بقيادة **علي الهاكين** يشق الطرق ويمهدها للمهاجرين.

أقبلت **تاجوج** وهي تضطرب، ترددت كثيرًا حتى استجمعت شجاعتها ودخلت على أبيها في قطيته، كان مضطجعًا على شقه الأيمن، ظنته نائمًا بادئ الأمر إلى أن ناداها بأن تدخل، جلست قربه على وسادة القطن تدلك رجليه، أزاحهما وجلس معتدلًا وقال: "يا بنتي كم مرةً سأقول لك، رجلاي خشنتان مثل جبل **التاكا** ويداك مثل ريش طائر الجنّة الكبير لا أتحمل أذيتهما". فقالت **تاجوج** في حياء: "هاتان اليدان لا تجدان الراحة إلا عند قدميك يا شيخنا"، كانت **أميرة** تكنس حوش الدار ورغاء جملٍ

يأتي من الخارج، قال **محمد** بحنوّ: "خير يا **تاجوج** أحسُّ أن في خاطرك شيء"، "جئتك في أمرٍ جديد عليكَ وعلَي"، "قولي وسأرى"، قالت بسرعةٍ وتلعثم: "أريد المشاركة.. في فلاحة الأرض"، سكتت قليلًا ثم واصلت: "لن أذهب وحدي.. سآخذ معي **أميرة**.. تقول صاحباتي إن العمل ممتع و..."، قاطعها أبوها باسمًا: "افعلي ما تشائين يا **تاجوج** فأنتِ الآن ناضجة"، وأزهرت فرحةٌ في قلب البنت، نادت على **أميرة** وأخبرتها بما جرى فحوّلت المكنسة إلى يدها اليسرى وزغردت، أتت **حفصة** مهروعةً إلى القطية تصيح بهم: "أين هو؟"، صمت **الهاكين** وابنته لبرهة، استغربا سؤالها وقالا معًا: "من؟". فقالت: "العريس!".

13

حفصة تحمل دماء الحمران والبني عامر معًا فأبوها الحمراني التقى بأمها ذات شتاء في خلاء عناتر، وقتها كان أبوها مع أخته في رحلة البحث عن قبر أبيهما في الخلاء، ما كان معهما من الزاد إلا قربةُ ماء وناقةٌ حلوب، والناقة كانت لأخته والتي مازحته قائلةً: "لولا ناقتي لهلكنا". فاغتاظ لتعريضها وخاصمها، قال بأنه لن يحلب الناقة لهما لو يموتان جوعًا، فاسترجعته أخته واستعفته فرجع عن كلامه، وبعد مسيرة يوم عادت لمزاحها القديم وهذه المرة قال الكلمة التي صعقتها وعرفت بعدها أنهما سيموتان في الخلاء جوعًا قبل العثور على قبر أبيهما، نفس الكلمة التي أهلكت أباها، قال حالفًا: "مداييت". ومداييت إذا قالها الحمراني فإما يحفظ قسمه أو يموت، أنهكهما السير والعطش وقساوة الخلاء، جلسا من بعيد يراقبان الناقة الحلوب وضرعها ينزُّ لبنًا، والأخت تجرع الندم على حمقها وتطاولها على أخيها الأشد حمقًا، فاللبن الذي تحلبه المرأة في عرفهم حرامٌ شربه ويجب دلقه. وبينما هما على تلك الحالة والدنيا بدأت تظلم والوجود يُليل مرّت بهما صبيتان تريدان قضاء حاجة، قالتا إنهما جاءتا مع قافلةٍ للتجّار متجهة لديار البني عامر، شرح لهما الأخوان حالهما فذهبت أشدهما ملاحة وأقبلت بعد برهة ومعها زادٌ وناقةٌ ورجُلان فتزوّد الأخوان

بالطعام والشراب واستُبدلت ناقةُ الأخت بناقةٍ حلوب أخرى حتى يستطيع الأخ حلب الناقة ولا يحنث بقسمه، وفارقتهما المرأتان بعد ذلك مع الرجلين وناقة الأخت. بعد شهر جاء الأخ لديار البني عامر مع ذويه يريد الزواج من تلك المرأة المليحة التي جاءتهما بالزاد والناقة الجديدة فأخبروه أن المنيّة وافتها في اليوم التالي لوصولها الديار فتزوّج صاحبتها والتي ولدت له فيما بعد **حفصة**، وأصبح بذلك أول الذي خرقوا عادة ألا يتزوّج الحمران إلا حمرانًا.

14

توالت النجوم بالطفو على السماء، امتصت الأرض مياه الأمطار وما فاض سرّبَته إلى **سيتيت** والخيران، يأتي من الغابة وأحراش **عرة الفيل** عواءٌ يتبادل أخبار الفرائس، المشاعل أمام القطاطي أوقدت من جديد وانتشر الضوء البرتقالي مغطيًا الديار كلها، وعند تكيَّة **أوهاج البجاوي** ككل ليلة يجتمع الشباب والكهول والصبية. التكيَّة أرضٌ مفروشة بالبروش والسجاجيد ومحاطةٌ إحاطةً قوسية بالحصير والقنا ومعروشة بالقش والخشب، أقامها زعيم الحمران الأسبق **أبو لوح** ليستريح فيها المسافرون ويأوي إليها الفقراء والتنابلة ويقدم فيها البجاوي القهوة على أصول القهوة الهدندويَّة، في كل صينيةٍ من الألمونيوم مبخر وفناجيل ودلةٌ نحاسية مزخرفة، أصوات دقات المهباش لطحن البن تأتي من ركنٍ قصي متناغمةً يطرب لها السامرون يقوم بطحنها صبيّان من صبية الحمران. صبّ **النور بن اللمم** القهوة وقدمها **لمحلق وضريس**، في الجلسة المقابلة يوجد بعض الطاعنين في السن وبعدهم خمسة من الشباب الماجنين كثيري الضحك والهرج، مجموعةٌ من النوق السوداء تبرك أمام المدخل تتوسّد التراب الرطب و**أوهاج البجاوي** لا يستقر في مطرح. "لم تقل لي يا **محلق** متى ستتزوّج ونرتاح منك"، قال **النور**، ضحك **المحلق** ضحكةً خفيفة وقال

"أتزوّج! صدقني يا **النور** أنا ما خُلقت لأتزوّج"، "لو كنتُ في مكانك ما ترددتُ ثانية، **تاجوج** بنت خالك وأخوها متزوّجٌ بأختك، لماذا لا تطلب يدها؟ رجلٌ مثلك لا تقدر عليه امرأة إلا **تاجوج**"، قال **ود ضريس** لافظًا القهوة التي رشفها حتى سالت على فمه ورقبته: "**تاجوج ومحلق**؟ عجيبة هذه، كيف يمكن **لتاجوج** أن تقبل بك؟"، وضع **المحلق** فنجاله على السجادة القديمة المهلهلة وقال بطريقة لا تخلو من الاغتياظ: "أتؤمن بالله يا **ضريس**! أنا أيضًا أرى استحالة هذا"، وصاح **ضريس** في التكية: "أتسمعون.. **المحلق** يريد الزواج **بتاجوج**"، وانفجرت التكية ضحكًا، حاول البعض كتم ضحكاتهم خوفًا من المحلق، اندهش النور من تصرف ضريس وأدهشه أكثر رد فعل **المحلّق** فقد اعتلى طاولة الخشب التي كانت أمامهم وجعل يقول كالمخمور:

ما بتجيك شاقَّة الوعر

وما دنقرت لقطت بَعَر[8]

شايلاه طافور[9] أب قعر

كاركارُه عاتق في الشَّعَر[10]

---

[8]/ لا تسير تاجوج في الأرض الوعرة ولا تطأطئ رأسها لتلتقط أي شيء من الأرض والمقصود أنها مرتاحة ليست كنساء البادية.

[9]/ إناء العطر .

[10]/ الكركار زيت عطري يضعونه بالشعر وعاتق معناها أن شعر تاجوج دائمًا كإناء العطر لا تفارقه الرائحة الزكية.

15

الأرضُ ناضرة تستيقظ كعروس وأحراش **عرة الفيل** تبعث بهبوبٍ دافئ والسماء قبة صافية لا تشوبها شائبة، الحمران ألفوا الزراعة مؤخرًا، احتكاكهم مع الأحباش والنوبة أكسبهم خبرةً في فلاحة الأرض وإن كانوا غير ملتزمين بزراعتها دوريًا، فأحيانًا يغلبهم الطبع البدوي فتبور أرضهم بالأعوام والمواسم وأحيانًا يطيب لهم الاستقرار وينشطون فيزرعونها على امتدادها، تعلموا من النوبة صناعة السواقي فأقاموا اثنتين على ضفة **سيتيت**، واحدةٌ صنعوها بأنفسهم والثانية جلبوها من ديار البني عامر في الحبشة عقب انفصالهم عنهم بعد مشاركتهم ذات أرضهم لخمسين عامًا قبل نزوحهم إلى أرض **الفيل** والاستقرار في **عناتر**. "العرب ما خُلقوا للزراعة يا **النور**.. هه.. العرب خلقوا للسرح بالبهائم"، قال **المحلق** وهو يزاحم الشباب لاهثًا في تقليب الأرض على شريط نهر **سيتيت**، "أنت تعودت السفر من خلاء لخلاء يا **محلق** حتى أصبحت تتصف.. بصفات البهائم"، "الارتحال عز العرب لا تنسى"، سأله **النور** بمكر: "إذًا لماذا بقيت ولم تذهب مع الدوار؟"، لكن **المحلق** تجاهل سؤاله. رُبطت النوق إلى السواقي وانقسم الشباب لفريقين توزعا على شريط **سيتيت** يحرثون الأرض كلٌّ في اتجاه الآخر، البنات جئن بالحبوب في جراباتٍ بيضاء ينتظرن انتهاء الشبان من الحرث،

كانت **أميرة** تشرح **لتاجوج** خطوات البذر بالتفصيل، و**تاجوج** تسترق النظرات إلى **محلق** من حينٍ لآخر، نظرات فضول تريد أن تعرف أكثر عن هذا الذي تجرّأ وقال فيها الشعر في تكية **البجاوي** على مسامع الناس فقد طار الخبر سريعًا وجاب كل الدور ليلة أمس بما فيها بيت **الزعيم**، توقعت **تاجوج** أن يمنعها أبوها من الخروج مع الفتيات لبذر الأرض لكنه لم يفعل. أخبرتها خادتها **أميرة** هامسةً بعض الأخبار عن **محلق** والتي جمعتها من الحريم، ظنّت **تاجوج** أنها تعرفه جيدًا وأن **محلق** الطفولة هو **محلق** اليوم. ليس به قدر كبير من الوسامة الآن، ربعة ليس نحيلًا جافًا ولا ممتلئًا مصبوب العضل وفي عينيه مكر وقسوة وحنينٌ دائم، شاربه الكث لم يرقها أبدًا ولحيته الحليقة غاظتها جدًّا وحدث حينها بينما هي تراقبه ما جعل قلب **المحلق** يرتج، وهو وقوع عينيها على عينيه ففار في صدره إحساسٌ دافئٌ وخطير. مرّت بهم **صبيحة** العجوز على ظهر ناقتها الجديدة تَرِدُ النهر، ألقت عليهم السلام بصوتها الجاف المتكسر وهي تلتحف شملةً من الصوف غيَّر الغبار والوسخ لونها وبيدها هراوة غليظة جعلت كل من رآها استغرب قدرتها على حملها، التفت **المحلق** **للنور** وقال: "**صبيحة** امرأة غريبة"، "بل قوية"، رد عليه **النور**، "كيف ظلّت أرملة كل هذه المدة؟ قالوا إن زوجها توفي ثاني يومٍ من زواجهما"، "أحبته كثيرًا، هكذا يقولون"، "ستّون عامًا بلا زوج أو ولد؟ ألم أقُل لك إنَّ هناك أناسًا لم يُخلقوا للزواج؟"، قال **المحلق** بتعجّب، "وما وجه الشبه بينك وبين **صبيحة**؟ دعنا من سيرة **صبيحة**، هل فكرتَ فيما قلته لك؟".

16

كلما شدا طير الخداري ارتاحت له الأسماع.

المحلق بدأ يقلّب فكرة الزواج في رأسه، زواجه يعني أنّ عليه أنْ يفارق عاداتٍ واظب عليها لسنين ويكتسب أخرى لا عهد له بها، كل كلمة سيقولها فيما بعد ستحسب عليه، كل حركةٍ وخروج فمصاهرة **الزعيم** ليست حدثًا عاديًا يمر هكذا والفوز **بتاجوج** باهظٌ لا شك وهو يريد أن يعيش حرًا و**تاجوج** قوةٌ هائلة تسيطر على عقله في النومة واليقظة، في كل سكتةٍ وحديث ولا يجد تفسيرًا لالتصاقها المستمر بتفكيره، فكرة صغيرة تعملقت واستوطنت بعقله بشراسة كأنها نَبْتٌ شيطاني، أمه كانت تعجن القمح لتجهز له فطير اللبن وهو يرقد على برشه يطالع السماء، "أمي ما رأيك في **تاجوج**"، سألها فجأة فالتفتت عليه بينما كانت توزع العجين على الصاجة، ردّت عليه: "ست البنات وبنت الأصول وأجمل من رأت عيني من بنات حواء، بنت أخي ابن أبي وأمي، مالها؟"، جلس **المحلق** مقابلًا أمه وقال: "ماذا لو قلت لك إنني أريد الزواج منها؟"، توقفت والدته عما كانت تقوم به، مسحت عن جبينها حبات العرق التي كان يندي بها جبينها، غسلت عن يديها العجين وجففتهما بثوبها ثم جلست قربه على البرش وقالت كأنَّ سعادةَ الكون جُمعت في قلبها: "أأنت جادٌ يا ولد؟"، ردة فعلها كانت سريعة وحماسية

بشكل أخاف **المحلق** أوشكت أن تُطلق زغرودة طويلة لولا قيام **المحلق** بكتم فمها، "إذا كنت جادًا الآن أذهب وأطلبها لك من خالك **محمد**"، قالت وأزاحت يده الكبيرة الخشنة، "أمي استهدي بالله هذا اقتراح"، "وأنا موافقة"، "وأنا لا أعرف هل أريدها بالفعل أم لا"، "هه، أنت سكران أكيد"، "لا أملك المال الذي يجعلني أضمن لها عيشة كعيشتها في بيت أبيها"، "**تاجوج** هذه جاءها واحد يمهرها بوزنها ذهبًا فرفضته هي لا تريد ثريًا تريد رجُلًا"، صمتت قليلًا ثم سألته ووجهها يضيء بشرًا وفرحًا: "أتحبها يا **محلق**؟"، أكانت تلك إرهاصات حب؟ لا يدري كيف ولا متى، كانت مراتٍ قليلة تصادفا فيها ولقاءاتٍ عابرة جمعتهما لبرهات لكنَّ أثرها وفي كل مرة يتوغّل في قلبه ويلتحم بذاكرته، والحكاية ستجري كما كُتبت وبيوت الدنيا تنزل من السماء مقدرةً منذ الأزل لكلٍّ منها أوان وسبب، والآن، بسم الله نبدأ الحكاية.

التوتُّرات

حتى إذا اقتحم الفتى لُججَ الهوى

جاءتْ أمورٌ لا تُطاقُ كبارُ

العباس بن الأحنف

1

الديوك تتجاوب، صياحها ينفذ إلى **المحلق** في أحلامه ومعها يندمج، الوجودُ مكسيٌّ بلونٍ فضيٍّ فاتح، الشمس لم تبرز منها إلا ناصيتها وبرودة الشتاء تصقع الجو. أول ما فتح **المحلق** عينيه وقعتا على **تاجوج** في البرش المقابل وهي تمشط شعرها أمام مرآتها المدورة ذات المقبض العاجي، أحسّت بحركته خلفها فاستدارت وهي تربط شعرها العطري، قالت بوجهٍ نضر وابتسامةٍ وضاءة: "كيف أصبحتَ اليوم؟"، "شخصٌ يصبح على وجهك ينال خير الدنيا كلها يا **تاجوج**"، أجابها **المحلق** بعينين ناعستين، "جهزتُ لك القهوة وعليك أن تقول رأيك فيها دون مجاملة"، "ستكون أحلى قهوةٍ أعدت في الوجود"، نهض **المحلق** من رقدته متحفّزًا، قال لها: "اسمعي.. لو فعلنا ذلك الشيء من سيخبرهم أننا خرقنا العادات؟ وفي النهاية أنتِ زوجتي حرمي وعرضي مع من سأفعل إن لم تكوني أنتِ؟"، "لا.. كله إلا العادات يا **محلق**". نهضت **تاجوج** ووضعت المشط والمرآة في صندوقها الخشبي المزيّن بالأحجار الملوّنة والزخارف فاستثار **المحلق**؛ إنّ جسمها لا ينهض دفعةً واحدة بل في دفعات، ترتدي قميصًا أبيض قصير الأكمام مزيَّنًا بأشرطةٍ ملونة زرقاء وزهرية وأطرافه منمقة بالكشاكش مع ثوبٍ أسود فضفاض يغطي رجليها إلى منتصف الساقين، كانت مُقَلْوَظَة الفخذين، ملساء

القدمين، ممتلئةٌ امتلاء راحةٍ وتنعُّم، صدرها كأنه دمية رُكّبت عليه أيادٍ بيضاء تميل إلى صُفرة تُبهِجُ النفس، تَبينُ تحت جلدها الحريريّ أوردتها بوضوح، القرط الذي ترتديه رغم طوله لا يلامس كتفها، تراها من بعيد فإذا هي فارعة وتأتيها من قريب فإذا بك تفوقها طولًا، "أتعلمين يا **تاجوج** أنكِ تستحقين أضعاف المهر الذي طلبه والدك ألف مرة؟". فضحكت البنت ضحكةً رنانة كأن صدرها به عُشة كنار وقالت: "انظروا من يتكلم، من الذي قال إن المهر مستحيل؟ ها؟ أستغرب كيف جمعته بتلك السرعة"، وقامت لترتب الفراش، هبّت عبر فرجةٍ في القطية موجة برد أرجفت البنت، تقدم **المحلق** لضمها فارتبكت وأسرعت بإغلاق الفرجة، قالت بصوتٍ متهدّج كمن تذكر شيئًا: "بالمناسبة.. موافقة أبي لم تكن تشترط المهر، حتى لو لم تستطع جمعه كان سيوافق، موافقة أبي كانت تشترط أن تتغير". وحرك كلامها أوتارًا ساكنة في صدر **محلق** وتذكر آخر ليلةٍ له مع **نورا أم شليخ** قبل زواجه بيومٍ واحد فاغتمّت نفسه. تلك الليلة همست له نفسه: "إنها آخر أيام العزوبية يا **محلق** لا مشكلة بانحرافٍ أخير"، وانسَلَّ من جيب ذاكرته صوت **النوربن اللمم** يحذره: "قطعتَ وعدًا بأن تكون إنسانًا جديدًا.. كن وفيًّا"، تلك الليلة كانت رحلة المهاجرين والدوار قد انقضت، دخلوا القرية مع الغروب بعد غيابٍ دام الخريف كله، البهائم كانت في كامل صحتها سمينةً ونظيفة، تمرح حتى يخيّل للناظر أنها تضحك، أشعةُ الغروب الصفراء أضفت على فرائها لمعانًا مذهّبًا وزاد عددها ضعفًا، بعض النعاج لا زالت حبلى والأبقار

المرضعة لا زالت حلماتها تنز، قطعانٌ من الماشية لا تحتويها العينُ في جهةٍ واحدة، تحفها سلسلةٌ من الإبل كأنها الجبال، عكسهم الرعاة من الدوار والمهاجرين، كانوا هزيلين جافين رثّي الهيئة والثياب كأنهم خرجوا للتوا من صفحاتِ التاريخ، يحملون حنينًا ولوعةً وكمًّا من الحكايات والغرائب، سيقصونها في تكية **البجاوي** على السامعين لليالٍ أخرى طويلة بما حدث فيها وما لم يحدث، سيبالغون فيها حتى تفقد واقعيتها وكل قصة تنجب قصة حتى يملّ السامرون الأقداح، بعدما قضى **المحلق** شطرًا من الليل متفقدًا أحوال العائدين من الهجرة قرر أن يلبي نداءات نفسه لملاقاة **نورا** وتوديعها، ارتمى كلٌّ منهما على التراب، فكّت رباط تكته بأصابعها الطويلة الدقيقة فتمدد عاريًا على التراب تعبث الريح بشعره، "لماذا لا تحلق؟"، سألته **نورا**، فقال **المحلق** غامزًا: "قلتِ إنكِ تفضلين الملتحين"، فضربته **نورا** على صدره وقالت: "الملتحين في الذقن لا ..."، دفعها على التراب وعرّاها حتى اصطكّت عظامها، تضاريهما شجرة سدر ضال كثيفة الشوك، عيناها كانتا تتألقان وتشعان نشوةً في تلك العتمة وكان هو كالمُغيّب، بعد أن قضى الاثنان وطرهما ارتميا على الأرض دائخين، توسدت **نورا** ذراعه واحتضنته كطفلة صغيرة، "احذري جيدًا فالتراب هنا مليء بالحشرات والعقارب، ضمي رجليك جيّدًا هههههه"، فضربته **نورا** على صدره وضحكت بجلجلة، صهل الحصان فسألتْهُ **نورا**: "أتظنه يفهم؟"، "لا أعرف، لكنه قليل أدب مثل صاحبه"، ثم دهمتْه ملَكة شعر فقال متغنيًا:

بَشِد واركب على الياخُدْلُه عَنّة

فريوة الريف مع التوب المَتَنّى

يتِب عجلان قَبلُ ما نِلم رَسَنّا

بيوت **نورا** أم **شليح** وين من أهلنا

وصمت للحظات ثم قال وهو يثبت عينيه على السماء: "أريد أن أقول شيئًا يا **نورا**"، رفعت **نورا** رأسها وحدقت في عينيه وقالت بلهفة: "قل يا **محلق**"، "هذه آخر ليلةٍ لنا معًا"، "..."، ارتجفت شفتا **نورا** ونبست: "هل أنتَ مسافر؟"، "لا.. سأتزوّج"، ارتجّت صورة وجهه أمامها، عيناهُ ناعستان وشعره معفّر بالتراب وشفته العليا يغطيها شاربه الكثيف، أتمّت **نورا** سؤالها بصعوبة: "ومن العروس؟"، "بنت خالي"، أرادت أن تقول له **نورا**: "وأنا؟" لكنها تراجعت، أدركت الآن مكانتها الحقيقية في حياة **المحلق**، كالسابقات للجسد فقط، للَّحظة فقط، صديقة تقضي له وطره، إنها ضئيلة على أن تقول له تزوجني، نهضت عن الأرض ونفضت عن إليتيها الناعمتين التراب والعوالق، التفتت نحوه وعيناها يخالطهما الدمع: "أأنت جاد يا **محلق** أم أنها مزحةٌ أخرى من مزاحك الثقيل؟"، "جاد يا **نورا**"، "بيت مال وعيال إذن"، نهض **المحلق** لما رأى تحدر دمعها واستغرب سبب بكاءها، سألها فامتنعت عن الإجابة، قال لها باسمًا: "أهي دموع فرح؟"، فاندفعت عن صدرها آهة دارتها ببسمة سريعة، هزّت رأسها بالإيجاب، لبست ملابسهما وركبت ناقتها وتأهبت

للرحيل، قال لها وهو يحكم ربط لجام حصانه: "ستأتين صحيح؟"، "للعرس؟"، "نعم"، هزّت خطام ناقتها فتحركت للمشي، قالت له: "سآتي"، لكنها لم تأتِ. "القهوة يا **محلق** ستبرد"، جذبه صوت **تاجوج** من عوالم شروده، "ألن تذهب للرعي اليوم؟".

2

أيامَ رعيه يسلك **المحلق** بأغنامه الطريق المؤدي للجبل وصولًا إلى سلسلة الصخور التي ترقد قبله ويسرح ببهائمه هناك، تتفرق أغنامه تقتات على أعشاب السحا والخافور والنجيلة، ينامُ عنها أحيانًا على الصخور الملساء فتضيعُ في الطرق الجبلية ويقضي نهاره بحثًا عنها، أحيانًا يهيم بخياله في **تاجوج** ولا يلقي بالًا للبهائم، يتخيل ضحكتها وصوتها الغريدين، أتته في منامه مراتٍ عدة، يخبرها بهذا كل مرة عند المساء وتُكذِّبه، وذات شطحةٍ من شطحاته وقعت عنزة من صخرةٍ عالية ودقَّتْ عنقها نافقةً في الحال وعندما أخبر **تاجوج** بذلك قالت له: "أنتَ لستَ بالشخص المسؤول"، لكنه قرر اليوم أن يصطحبها معه في رحلة رعيه، أثارت الفكرة حماس البنت فاستأذنت أباها فقال لها: "وليُّك الآن زوجك، إذا خرجتِ فلا تخرجي إلا بإذنه ولا تُدخلي أحدًا بيته إلا بإذنه ولا تنامي إلا بإذنه"، وأما أمها فقالت لها: "ما شأنك والبهائم يا **تاجوج**؟ ثم إن الجبل خطير والطريق غير مأمون"، وقال **علي الهاكين**:"مع **محلق** لن يصيبها مكروه"، وقالت **أميرة** محزونة: "أريد الذهاب معكما"، وأول ما طلعت الشمس جاء **المحلق** بناقة بشارية وربطها أمام قطيته الجديدة في دار **الهاكين**، ارتدت **تاجوج** فستانًا ضافيًا قصير الأكمام ذا لونٍ زهريٍّ فاتح ولفَّت حول

خصرها ورأسها ثوبًا أزرقًا، كانت عاطلةً عن الزينة وتجدل شعرها ضفيرة واحدةً طويلة تضمخه بزيت الكاركار، شد **المحلق** خطام الناقة فبركت وجلست **تاجوج** على رحلها، ارتجفت وصاحت عندما شبّت واقفة، لم تتعود ركوب الناقة هكذا، كانت دائمًا تتجول بها داخل هودج بمصاحبة **أميرة**. حصنتها أمها من العين وأوصت **المحلق** بها مرارًا كأنها طفلة أو درويشة لا تفقه من أمور الحياة شيئًا.

بدأت القطاطي تختفي عن المشهد، تحل محلها الرمال وبعض المساحات الخضراء المتفرقة، **تاجوج** تتشبث بكل حواسها على ظهر الناقة، أمامها النعاج والخراف تمشي مجتمعة ولا تفلت منها بهيمة كأنها مربوطةٌ إلى بعضها بحبلٍ خفي، وعن يمينها **محلق** يقود الجمل بيد ويمسك بالأخرى سوط العَنَج الذي يوجّه به الهائم، يغبط الجمل على حمله **تاجوج** ويسعد بذلك أيضًا، تهيج قريحته فينشد بصوته الفخم مترنمًا مادحًا ناقته، "تقول الشعر حتى في الحيوانات؟"، قالت **تاجوج** متعجبة، "أتظنين أنني خُلقت لأقول الشعر فيك فقط؟"، "يا بختي، لي زوج فارس وشاعر"، "إذا مر يوم يا **تاجوج** دون أن أقول فيه الشعر أحسُّ أنني ناقص"، الأعين كانت تسترق النظرات إلى الزوجين طيلة رحلتهما إلى الجبل، والخبر طار إلى كافة أرجاء عناتر وهو أن **محلق** أخذ **تاجوج** معه للرعي اليوم فتتمتم الألسن: "إنه آخر الزمان.. تخرج **تاجوج** دون هودج"، "**محلق** لا يعرف قيمة **تاجوج**، لو كنت محله لذهبتُ

بها إلى التاكا"، "الحب يعمل العجائب"، "لا شك أن الزعيم قد خرِف".

لمّا تكونت ظلال الضحى كان الحبيبان قد وصلا الجبل، تفرقت البهائم تقتات على الأعشاب، جلست **تاجوج** تحت ظل صخرة ضخمة مادةً رجلها، رمى **المحلق** سوطه جانبًا ورقد برأسه في حجرها، أغمض عينيه وغطس في لُجّة أفكاره، انتبه على صوت **تاجوج** وهي تهمهم بلحنٍ ما، "ارفعي صوتك"، قال لها فسكتت، ضم **محلق** شفتيه في اغتياظ ثم قال: "ليتني ما تكلمت، حتى متى الخجل؟ أنا زوجك يا **تاجوج**"، "إنني لا أحفظ الأغنية.. هذا كل ما في الأمر"، "أنا أتكلم عن تصرفاتك منذ أن تزوجنا، أحس أنك تتجنبينني"، "عيب يا **محلق**.. لم أقبل بك لأتجنبك"، نهض عن حجرها وقرفص أمامها محدقًا في وجهها: "ما تفعلينه لا أعلم من أين جئتِ به.. لكن ما أقوم به أنا يفعله الأزواج يا **تاجوج**"، قال ثم انصرف يحمل سوطه، لسعتها عبارته الأخيرة: "تزوجتُ طفلة وأنا لا أعلم". وهبط بقفزة واحدة حيث تسرح البهائم.

3

وُلدت **تاجوج** في سنةٍ جدباء عسيرة لكنّ ولادتها كانت سهلة، أمها **حفصة** كانت في الشهر الأخير عندما سافرت لديار البني عامر لحضور عرس أختها، تحركت بعد المغيب في قافلةٍ لا تتجاوز ثلاثة جمالٍ وحصانين، هودجٌ به هي و**أميرة** وآخر به ابنها **علي** و**كعب الغزال** بنت خالتها والجمل الأخير يركب عليه زوجها متقلدًا منصورة وعلى الحصانين حموها المرحوم **عبد الحميد** وابنه المرحوم **حامد**، يهتدون بالنجوم لمعرفة الاتجاه ويستضيئون بمصابيح الزيت في عتمة ذلك الخلاء المجدب، تأخر المطر كثيرًا ذلك العام وهزل نهر **سيتيت** كثيرًا، بعض عوائل الحمران غادرت **عناتر** متوغلة أكثر صوب الغرب وأخرى زحفت شرقًا نحو الحبشة، ذلك العام وفي ظل تلك الأزمة احترف الحمران والبني عامر تجارات من نوعٍ جديد في تلك المناطق: تجارة العاج وتجارة الرق، جنوا من وراءها أموالًا لا طائل لها من العثمانيين الذين كانوا يبسطون نفوذهم على أرض مصر وسواكن.

عندما جاءَ **حفصةَ** المخاضُ كانت نائمةً، تداعبها نسماتٌ عليلة عبر ستار الهودج، تنبهت **أميرة** لانقباضات وجهها وتململها فعرفت أنها ساعة الولادة، صاحت عبر الستارة تخبر **محمد** بأن زوجته على وشك الوضع، لم تحرِ كيف تتصرف فقد كانت

حديثة السن ابتيعت قبل شهر من **عبد الحميد** والذي اشتراها هي وأمها من تاجر ذاع صيته تلك الفترة ببيع الخدم والعبيد ينادونه **أنف البعير**، وأما **كعب الغزال** تكاد تكون في عمر **حفصة** لكنها نشأت مرفهة ولم تخبر من أمور الملمات شيئًا، عندما بركت الجمال وأُنزل الهودج على التراب كانت الململة قد اشتدت، صلّى **محمد** ركعتين ودعا الله أن تُسهّل الولادة، جذبه الإحساس بالندم لأنها أخبرته بأن يكون السفر قبل الدخول في الشهر الأخير لكنه عاند، **عبد الحميد** أخوه وقف على مبعدةٍ منهم وعلى وجهه مسحة قلق، قال لأخيه وهو يلف حول رأسه شالًا ناصع البياض يستعد لركوب حصانه: "سأفتش عن قابلة، رأيت نارًا جهة الجنوب عسى ولعل أن نجد الفرج". وارتحل مع ابنه في رحلة البحث عن قابلة ولم يعودا بعدها أبدًا، تحكي **أميرة** بعد ذلك أن **حفصة** دهمتها عطسة حادَّة انزلقت إثرها **تاجوج** على البرش صارخةً وعندما رآها أبوها قال: "نسميها **ملكة**" وبعد أن **قبَّلها** وشمها قال: "نسميها **تاجوج**"، وأما **عبد** الحميد وابنه فلم يُعثر لهما على أثر بعدها، طال غيابهما لسنوات حتى حُكم عليهما بالموت ووُزعت تركتهما.

4

مالت الظلال و**تاجوج** تبحث عن موضوعٍ تباشر به الحديث مع **المحلق** فهو يمسك لسانه منذ تلك اللحظة وهي تريد أن تراضيه، ما كانت تظن أنه يصبح هكذا عندما يزعل، يسكت ويكتم مثل الناقة تُخزِّن الألم إلى حين لحظة الانفجار، هكذا كان دائمًا لا يبين منه للناس إلا جانب الهزل، نفسه الآن تحدثه: "أنتَ سيء، دنيء ولا تستحق **تاجوج**"، اندلقت في ذاكرته آثام ماضيه وأيام مجونه فسقط به ذلك إلى هوة سحيقة، لكنه يتذكّر أيضًا فيخرج للسطح، يتذكر أنه تغير أو قد بدأ رحلة التغيير على الأقل وسيستمر في التغيير من أجلها، يريدها أن تتحدّث، أن تبادره وسيقوم هو بالباقي، يأتيه عطرها كأنَّه امتدادٌ لحلم، يريد أن يكلِّمها لكنه يريد أن يظهر لها أيضًا أنه يحزن ويغضب، ينتظرها أن تنبس وتنتظره أن يلين، ترتعد شفتاها وتتوتر حبالها الصوتية لتنطق، تحسبه مشغولًا بالبهائم لأنه يلحق بسائبةٍ ليضمها للقطيع فينطفئ التوتر وترتخي الحبال وتُضم الشفاه، وقالت نفسُ **المحلق** له: "والله لا تكلمها حتى تكلمك"، ثم تجسدت في خياله صورة **نورا** مفرجةً ساقيها.

عند المساء جلس **المحلق** خارج القطية لافًّا حول صدره لحافَ وبرٍ مشعلًا النار أمامه، كلما أحسها ضعُفَتْ ألقى إليها

مزيدًا من الأعواد، حصانه الجماني يعلف بشراهة كأنه لم يأكل لأيام. لا يستطيع **المحلق** الآن الانطلاق في الخلاء مثل أيام زمان ولا يستطيع شرب الخمر وقتما أراد ولا يمكنه السهر في تكية البجاوي حتى ينتصف الليل، معارفه الهبماتة قطاع الطرق يخبرونه سرًا أن قوافل التجارة هذا الموسم عامرة وكثير من القوافل المتجهة إلى مصر والحجاز ملأى بالذهب والصمغ والأحجار الكريمة وأنَّ تركيزهم ينصب في قوافل الخدم والعاج واللذَيْن بدأت تجارتهما تزدهر مجددًا، عواء ذئاب بعيدة يأتيه بوضوح من ناحية الجبل لكنه هذه المرة عواء حنين وحزَن لا تبادل أخبار وفرائس، يستطيع تمييزها جيِّدًا، لاح في ذاكرته طيف ذكرَى قديمة عاشها منذ سنواتٍ ونسيها، لكنها الآن تُصوّر في ذهنه كأنها تحدث أمامه لكن بإحساسٍ مختلف غير ما أحسّه وقتها؛ كان الليل شديد الحلكة وقد خرج للهو مع أصحابه، كانوا وقتها في بواكير صباهم يدفعهم طيشُ الصبا وحماسة المراهقة، قرروا فجأة أن يصطادوا خرتيتًا فقد ملّوا صيد أصَلات البحر والأرانب البريَّة، حملوا مشاعلهم وحرابهم وتوزعوا على ثلاثة أحصنةٍ اثنين اثنين: **المحلق** و**النور**، **ضريس** و**عيسى الهجّان**، و**العَلِيَّان**. من بين أشجار الغابة وأعشابها الكثيفة سمعوا صوت الخرتيت يأكل، تفرقوا في دائرةٍ كبيرة للإحاطة به، أضواء المشاعل بيَّنت لهم لونه الرمادي وقرنيه العاجيين الحادين، ساقا **النور بن اللمم** كانتا تجاهدان لحمله و**المحلق** تتوتر عضلاته تأهبًا لشلِّ الرمح في رقبة الخرتيت فيسخن جسده وتُشد أعصابه، يقتربون منه ببطء، يعرفون جيدًا أنه

حيوانٌ ضعيف البصر وقد لا ينتبه لوجودهم إلا وهم يغرسون الرماح في لحمه، سمعوا ممن هم أكبر منهم أن لون دمه أزرق فتعجبوا من ذلك وشغفوا لرؤية دمه، لكنّ تهوّر **ضريس** أفسد عليهم كل شيء، لم ينتظر إشارة **المحلق** للهجوم فانتبه وحيد القرن لوجودهم، استدار حول نفسه مرتين وتأهب للهجوم حانيًا عنقه، تشتت تفكير الصبية وجرى علي **التقاوي** وأفسح له طريق الهرب، أدهشتهم سرعته رغم ضخامته، قام **ضريس** و**علي الهاكين** بتقريع **التقاوي** ولومه ووصفه بالجبن وقال **التقاوي** إن الخطأ كله خطأ **ضريس** وفُتنوا فيما بينهم في حين أن **المحلق** انطلق خلف الخرتيت، كانت الأعشاب كثيفة والأغصان متشابكة ونهيز البوم يأتي من كل اتجاه و**المحلق** يركز بصره نحو مؤخرة الخرتيت الذي يخترق كل ما أمامه من أعشاب وشجيرات، غاب عن **المحلق** صوت الصبية المتشاجرين ولم ينتبه أحدٌ منهم لغيابه، عيناه مع انعكاس نيران المشعل المتراقصة تبدوان شعلتين تتقدان غِلًّا وشراهة، بشعره الطويل وبنيته النحيلة وسرعته الفائقة يخاله الرائي جنيًّا من العفاريت، تفجَّر في أضابير ذاكرته قول أبيه عندما أفلتت منه الدجاجتان في السوق وزاغتا منه: "لن تصبح رجُلًا أبدًا.. الدجاج يُضرب به المثل في الجُبن وأنت تخاف منه؟"، كانا ذاهبين للسوق لمقايضة الدجاجتين بربع قنطار بصل و**المحلق** كان عائدًا لتوه من خلوة **الشيخ سيدي عبّاس**، كان في طفولته يهاب الطيور والحيوانات وذلك اليوم أحس أن أباه قد قرر مقايضة الدجاجتين ليختبره، تقدّم أبوه أمامه بعدما سلّمه

الدجاجتين من رجليهما ورأساهما للأسفل وعند البائع فرفرتا فرفرة الذبيح ففزع **المحلق** وأفلتهما وضاعتا في السوق، لكنه يصر اليوم على ألّا يفلت الخرتيت منه، تلاشت كل التفاصيل حوله، يرى نفسه الآن والخرتيتَ في خطٍ مستقيم يلاحقه ولا يلحقه، وجه أبيه الخشن يطل عابرًا كشبحٍ تائه ومثلما يطل دومًا عندما يتذكره وجه نحيل طويل خشن كحجر الجبل معجونٌ بالقسوة والحزَن، انتبه **المحلق** لصوت نطح الخرتيت لحيوانٍ آخر وعواء طويل مشروخ ثم غاص الخرتيت في بركة كبيرة شديدةِ الانحدار، ضاع منه فعض شفتيه وقعد على الأرض منهك القوى، أنفاسه مضطربة شديدة التسارع كأنها تُجري سباقًا في مسارٍ خفي، وقف على حافة البركة يلهث ينتظر ظهور الخرتيت لكنه لم يظهر، بعدما استجمع قوته وانتظمت أنفاسه مر بالذئب النطيح، كان مصابًا في وركه بطعنةٍ عميقة وعيناه تلتمعان وصوته يستنجد نائحًا، وقف متأملًا حالَه، لعله ينوي أن يغدر به ويفترسه، ابتعد **المحلق** واستدار لينصرف، ثم رجع مرةً أخرى دافنًا رأس الرمح في أحشاء الذئب بطعنةٍ واحدة فسقى دمُه أعشاب السحا والخافور وسمع وهو يعود أدراجه عواء ذئاب أخرى ما أشبه اليوم بعواء الذئاب القادم من الجبل، عندما التفت لحصانه وجده قد أتى على البرسيم كله فأحضر له من وراء القطية حزمةً أخرى، أحكم لفّ لحاف الوبر عليه، قال لنفسه وهو يلقي مزيدًا من الأعواد للنار: "لماذا قتلتُ الذئب ولم يكن باستطاعته أن يهاجمني وهو في تلك الحال؟". فقالت له نفسه: "عندما قتلته رحمتَه.. كان يصرخ من

الألم". وجاءته **تاجوج** بقدحٍ من اللبن الساخن وخبز السمسم ووضعتهما قربه، توقفت قليلًا كأنها تريد أن تقول شيئًا أو أنها تنتظره أن يقول شيئًا، لكنه لم يلتفت إليها وظل محدقًا في النار فعادت البنت إلى قطيتها محزونة، ورقد **المحلق** على الأرض يطالع السماء، كان القمر بدرًا مكوَّرًا فضيًا وقريبًا، بدا له كأنه قرط يتدلى على جِيدِ **تاجوج**.

5

لم يزل **المحلق** في تأملاته تلك حتى فوجئ **بالزعيم** واقفًا فوقه مُطلًّا عليه برأسه كأنه صقر عملاق فنهض فورًا ونفّض التراب عنه، رحّب بخاله أشد الترحيب وألح عليه بالدخول إلى القطية فقال **الزعيم** وعيناه تحدقان بوجه **المحلق** بثبات: "وما دام الجو باردًا ياولدي لماذا تجلس هنا ولماذا امرأتك ليست معك؟"، "النار تدفئني هنا و**تاجوج** نائمة"، "**تاجوج** لا تنام وزوجها صاحٍ يا ولدي"، ثم لاح على وجهه طيف ضحكةٍ أدهشت **المحلق**، يبدو **الزعيم** أصغر وأوسم عندما يضحك، لا يذكر على وجه التحديد متى كانت آخر مرةٍ رأى خاله يضحك، "اجلس يا **محلق**.. جئتك أريد أنت لا **تاجوج**"، جلسا على مقربةٍ من النار، ألقى **المحلق** إليها مزيدًا من الأعواد وحلف على خاله أن يشرب اللبن بخبز السمسم وألحّ عليه لكن خاله ما قبِل، "جئتُ لأوصيك وأذهب.. ثم إنني منذ ثلاثين عامًا أعيشُ على الإفطار فقط.. تذكّر.. ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًّا من بطنه"، ونظر في النار لبرهةٍ حسبه **المحلق** فيها شاردًا ثم قال: "**تاجوج** يا بُني أغلى ما لدي وأنت يا **محلق** ابنُ أختي الوحيدة ومعزّتك من معزّتها ويهمني أمرك كما يهمني أمر **تاجوج**.. جئتك حتى أخبرك أشياءً عن البنت ربما تكون غائبةً عنك فأنت لم تعاشرها من قبل وما أحدٌ أدرى بأحدٍ أكثر من أبيه". صمت للحظة ثم وجّه بصره

نحو **المحلق** وقال: "**تاجوج** رقيقة يا **محلق**، بريئة لم تخبر من شقاء الدنيا شيئًا، نشأت في بيتٍ مغلق ولم تتعرف طبائع الناس ولا عهد لها بالشرور والأحقاد، لم تتعوّد أن تقول ما بخاطرها فهي تفرح سرًّا وتحزن سرًّا وتغضب سرًّا، لكن عينيها لا تشيان بشيءٍ غير الفرح الصافي، قد تحتاجُ زمنًا حتى تفهمها.. وهي أيضًا ما كانت لتعرف طبعك في ساعة صفاء، الزواج بكثرة خلافات مشكلة والزواج دون خلافات مشكلة أكبر، كلٌّ منكما يا ولدي سيحتاج للتضحية بأشياء تخصه من أجلِ الآخر، وكل بيوت الدنيا تمر بساعات صفاءٍ وساعات كدر"، وضع **المحلق** يده على يد خاله وقال: "يا زين كلامك يا شيخنا.. كمّلك الله بالعلم والصحة وأدامك علينا نعمة.. **تاجوج** يا خالي على العين والرأس، كاملة والكمال لله وحده، هي عندي بالدنيا وسأسمع كلامك وأعمل به"، قال **الزعيم**: "حفظكما الله وأبعد عنكما الشيطان.. الإنسان في هذه الدنيا مهما بلغ من جاهٍ ومال لو لم يتزوج وينجب فهو خسران، وما طريقنا إلا طريق آبائنا، وما طريقهم إلا طريق أجدادنا.. نأتي للدنيا لا نعرف شيئًا ونخرج منها لا نفهم شيئًا".

6

محمد علي الهاكين جلس على كرسي الزعامة في الخامسة والثلاثين وتزوّج في سن الأربعين، وكما عُرف بالحزم والتسلّط اشتهر بالحكمة والرزانة والعدل، وُلد في بيت جده في ليلةٍ من ليالي رمضان وتنبّأ له خاله بأنه سيتزعّم الحمران يومًا ما، قضى جزءًا من طفولته في عناتر لكنه نشأ وترعرع في ديار البني عامر عقب هجرة الحمران إلى الحبشة في سنين الجفاف والمجاعة، فصل الحمران عن البني عامر عند توليه الزعامة، درس القرآن وتعلّم الدين في صباه ثم عمل بالرعي ردحًا من الزمن واشتغل في تجارة الحرير بين الحجاز والحبشة فكوّن ثروة، ومالُه مع نسبه الرفيع وتفقهه في الدين، جعل كل ذلك منه مرشّح الزعامة الأول.

٧

لم يكُن قد تبقى للفجر سوى سويعات عندما دخل **المحلق** قطيته، أدارت **تاجوج** رأسها في حركةٍ متعبة، ألقى عليها التحيّة فردّتها، اعتذر إليها أن جعلها تسهر إلى هذه الساعة، قامت على طولها ببطء وبسطت له فراشه ولحافه، يحسبها غير راضيةٍ عنها وتظنه غاضبًا وفي قلبِ كلٍّ منهما توقٌ للأخَر، فكّر **المحلق** مرتين في أن يضمها، مرّ عليه كلام خاله فأمسك نفسه، جلس على فراشه وأجلسها قربه وكان ضوع شعرها يضمّخ الكون، "لستُ كما تظُن.. أنا فقط...". فقاطعها: "أعلم.. أعلم يا **تاجوج**"، وابتسم لها ابتسامةً واسعة أظهرت نابيه الكبيرين كنابي أسد، "يكفي أنكِ قربي"، قال فتورّد خداها.

8

صحا **المحلق** منشرح الصدر، ضوء الشمس ينسرب عبر ثقوبٍ خفية في السقف والجدران، وجد **تاجوج** تخبز عيش السمسم خارج القطية، المسكينة تفتقد **أميرة** كثيرًا فهي لم تعتد القيام بهذا الكم من المهام وحدها، وعدها **المحلق** بأن يشتري لها خادمةً جديدة لكنه لا يريد وجود شخصٍ ثالث بينهما هذه الفترة، فور أن رأته **تاجوج** يتمطّى للقيام وضعت قهوته على النار وأخرجت لحاف الوبر كي يدفئ به نفسه خلال رعيه بين الجبال، صلّى كأنه يريدها أن تراه يصلّي، **تاجوج** انتبهت له منذ فترة، إنه لا يتذكر الصلاة إلا لمامًا ويصليها أحيانًا دون وضوء وقد يمرّ اليومان والثلاثة دوان أن تراه راكعًا أو ساجدًا، كان صريحًا معها منذ البداية وقبل أن يتزوّجا: "إنّ ماضيّ سيء.. كنت أسكر وأقطع الطرق وأغش.. لكنني أتغير وبدأت مؤخرًا الصلاة، هل تقبلينني بعدما قلته؟". فلم تقل شيئًا وظلّت ساكتة. بعدما شرب قهوته وتناول إفطاره التحف بلحاف الوبر وحمل سوطه، نغز به كفل **تاجوج** جاسًّا فنفرت نفرة الغزلان داخلةً للقطية، ومشى في دربه نحو زريبته متبخترًا يبرم شاربه، تجتاحه أسئلة كثيرة منها: "كيف يكون الحال لو كانت **تاجوج** بجرأة **نورا**؟".

9

نورا محمد صالح، وُلدت واستقبلتها الدنيا بأنيابها، اشتهرت **بأم شليخ** نسبة لشلخ صغير على ذقنها، ترعرعت في أحضانِ أسرةٍ صغيرة متواضعة تتبع للشكريّة، كانت بكرية أمها، منذ بواكيرها اعتادت العمل الشاق والحياة الخشنة في سبيل إعانة أمها وأختها الصغرى، قُتل أبوها في إحدى غارات البِجا على **عناتر** وأقعد المرض أمها فخرجت للعالم صبيةً شرسة تقتلع اللقمة اقتلاعًا، عملت بادئ الأمر في السوق الكبير تبيع القفف المنسوجة من خوص النخيل ثم انصرفت للرعي واستغرب رجال القبيلة هذا الفعل فوُصفت بالمترجّلة وتمادى البعض فوصفوها بالمخنثة إذ أنها كانت تشبه في صباها الأولاد كثيرًا، كانت ترعى غنم أحد التجار الأثرياء كل يومين ويوفيها التاجر حقها كاملًا وزيادة، وعندما اهتاج رحمها وبدأت رحلة تحولها إلى امرأة تفجّرت أسرار الأنوثة والجاذبية في جسدها فنعُمت أطرافها وتدلّى شعرها وانتفخ صدرها ولدُنت أردافُها وتكوّرت حتى أنّ من كانوا يصفونها بالمخنثة أصبحوا يقعدون لها في الطريق حتى يتنعّموا بحُسنها، أكسبتها حياة الشدة قوةَ الشخصيّة، وجاءت الأقوال حول تحوّلها إلى خليلة أنّ التاجر الثري كان قد وعدها بمبلغٍ سيجعلها في مصاف العليّة في القبيلة مقابل المداعبات والقُبل وطمأنها: "بدون خلع ملابس.. هذا أهم

شيء عندي ولن يعلم جنيٌّ بهذا الأمر"، يقول الشهود بعد ذلك أنهم وجدوها غائبةً عن الوعي في خلاء **زهانة** مضروبةً مخدوشةً ومعضوضة، عندما اشتكتْ التاجر الثريَّ إلى شيوخ الشكرية ما أبهوا لها وحُمّلت العار وحدها واختفت عن الظهور لمدة طويلة داخل بيتها حتى نسي الناسُ حكايتها، وبعدها ذاع صيتها فجأة بأنها تضاجع فرسان العوائل الأخرى في خلاء **زهانة** مقابل الفضة والذهب.

10

"إيه يا **محلق**.. اذهب ببهائمك هذه بعيدًا.. إنها لا تفعل شيئًا سوى توسيخ المكان"، قال **أوهاج البجاوي** وهو يكنُس سجاجيد التكيَّة، خلفه صبيّان يدقان البُن في المهباش طوال اليوم كأنهما جزءٌ من أثاثها. عادةً يصطبح كل أهل السوق في تكيّة **البجاوي**، أبخرة القهوة وإيقاع دقات المهباش أصبحت من الثوابت صباح كل يوم، ورغم أن **المحلق** يشرب القهوة في بيته قبل خروجه للرعي فقد اعتاد المرور بشارع التكيّة لملاقاة أصحابه هناك، يقعد معهم قليلًا ويُثنّي قهوته معهم ثم يفترقون كلٌّ إلى سبيل رزقه، **ضريس** يحتسي قهوته التي يحبها بنكهة القرنفل ويتمطّق وإلى جانبه **عيسى الهجّان** يتبادل حديثًا مع **النور**، "والله يا **محلق** كبرنا وعقلنا"، قال **ضريس**، "والله يا **محلق** أصبحت جلساتنا من بعدك أنت و**التقاوي** بلا طعم"، أردف **عيسى**، "البركة في **المحلق** نراه من حينٍ لآخر.. أما **التقاوي** فأصبح مثل ليلة القدر، هذا مصير كل متفالح يريد الزواج"، قال **ضريس**، فصاح **البجاوي** وهو يمر بهم حاملًا دَلّة نحاسية تترجرج القهوة على فوهتها: "حياة العزوبية لا تعوّض.. من تزوّج ضاع"، "من يراك يا **أوهاج** لا يظنك أعزبًا بل أرملًا"، قال **المحلق** واتخذ قرب **النور** مجلسًا، تبادل الأصحاب أخبارهم، **ضريس** يتهيّأ للزراعة هذا الموسم و**عيسى الهجّان** ينوي الارتحال إلى

مصر للتجارة في الأسلحة البيضاء المستوردة من أوروبا، **النور** لا يزال في دكانه بالسوق يعمل نسّاجًا و**المحلق** يتأقلم مع حياته الجديدة، وفي غمرة انشغالهم وصلهم من **أوهاج** خبر اشتباك الهدندوة والبني عامر ليلة أمس، الاشتباكات بين القبائل حدثٌ عاديٌّ في أرض **الفيل** يحصل اليوم ويتناول الناس أسبابه غدًا مع القهوة، ليس المهم من انتصر ومن خسر ولا عدد الضحايا بين الجانبين لكن المهم هو السبب والأهم من السبب في حكاية **البجاوي** هو السلاح الذي أخرجه أحد البني عامر وقاتل به، "سلاحٌ طويل مثل الأنبوب يوضع على الكتف ويخرج من فتحته نار ودخان، يُصدر صوتًا يصم الآذان"، قال **البجاوي**، وقال أحد الجلوس في التكيّة: "يقولون إن اسمه السلاح الناري"، وأردف **البجاوي** واقفًا: "هذا السلاح لو كنتَ في **زهانة** وعدوّك في **عناتر** تستطيع قتله دون أن يراك"، وردد الناس في التكية: "يا لطيف"، "يا ستار"، وسأله **المحلق**: "ومن أين جاء به البني عامر؟"، وعلّق أحد الحضور: "هذه المصائب من الهمباتة"، وقال **البجاوي**: "إنهم يقايضون العاج بالأسلحة"، ساد الصمت لبرهة لا يعرفونها طالت أم قصُرت، ثم سأل **النور**: "ومن الذي يملك السلاح؟"، فقال **البجاوي** وهو ينفش شعره بالخلال الخشبي: "الأتراك".

المحلق يمشي وتمشي البهائم أمامه بثبات تعرف وجهتها جيّدًا، ومن تراودها فكرة الخروج عن القطيع يتلقاها بسوطه الطويل الدقيق، بمحاذاته **النور بن اللمم** يركب حمارته قاصدًا

السوق، حمارةٌ سوداء مقطوعة الذيل ابتاعها مريضةً من أحدِ النسّاجين معه في السوق واعتنى بها إلى أن اشتمّت العافية وأصبحت دابته المفضلة للتجوال داخل القرية، الأغنام تموء كأنها تتبادل حديثًا شائقًا وتنهق الحمارة كأنها تتصيّد فرصةً للحديث معهن، و**المحلق** و**النور** صامتان، صمتُ **المحلق** يقلق **النور** فـ**المحلق** لا يصمت إلا للحديث مع نفسه، "خير.. فيمَ تفكر؟"، "لا شيء"، "**المحلق**.. هل كل شيءٍ تمام؟"، ولمّا لم يُجب **المحلق** واصل **النور** قائلًا: "أعني.. أنت و**تاجوج**"، قال **المحلق** بوجهٍ خالٍ من التعابير مثبتًا نظرةً صفراء إلى الأرض: "في أفضل حال.. الحمد لله"، "إذًا لماذا هذه الحيرة؟ لستَ **محلق** الذي أعرفه"، أخذ **المحلق** نفسًا عميقًا ثم أطلق زفرةً ساخنة وقال:"**تاجوج**"، "مالها؟"، "تخاف مني"، وتقدم حمار **النور** حتى تجاوز **المحلق** فشد **النور** لجامه حتى يحاذي صديقه، "يبدو أنّ ما حكيته لها عن ماضيّ أثر فيها.. وأشكّ أنها سمعت بعلاقاتي مع بنات **زهانة**"، "لا أعتقد.. لو كان هذا هو السبب لما تزوجَتْك من البداية وهي تعرف بماضيك من قبل الزواج.. هي عروس جديدة أمهلها فقط.. الأهم هو أن تلتزم بما عاهدتّ نفسك عليه"، "الأمر صعب والحكاية طويلة"، "من أجل **تاجوج**!".

11

النور بن اللمم يكبر **المحلق** بعامين لكنه يبدو خلاف ذلك، اشتهر بالحياء والأدب واستنكر الجميع صداقته **بالمحلق الهمباتي**، أبوه كان صيَّادًا يبيع التماسيح وجلودها متجوّلًا بين القرى المتاخمة لأرض الحبشة والقريبة من سيتيت وكانت تجارة التماسيح رائجةً تلك الأيام فدخل اليُسر بيتَه فنشأ **النور** طفولةً يكتنفها الرخاء، حفظ القرآن في الخلوة ونسيه بعد ذلك لكنّ آثاره باقيةٌ عليه، مات أبوه في طفولته وترك له مالًا وفيرًا يكفيه هو وأمه والعمياء، وفي أوائل صباه انخرط مع **المحلق** وأصحابه، كان نوّارة الشلّة، ألطفهم وأكثرهم هدوءًا وعلمًا بأمور الدين، براءته المفرطة أيام صباه ونعومته النسبية ذلك الوقت سببا له الكثير من المتاعب خصوصًا وسط شلّة **المحلق**، كان **المحلق** أيامها يستغله ويغشه واعترف له لاحقًا بذلك الأمر فقال له **النور**: "كنت أرى.. لكن كنتُ خائفًا".

12

حطّ الغراب على صخرةٍ بيضاويّة ونعق نعيقًا طويلًا كأنه ينادي، جفلت بعض الأغنام، عين الشمس في كامل اتساعها تملأ السفوح هجيرًا، مضت أشهر الشتاء سريعًا وهكذا هو دومًا في أرض **الفيل** ضيفٌ عجول أما الصيف فساكنٌ ثقيل، تتفتّح مسامات **المحلق** ويحس بذلك كأنه التحف الآكولة يتعرق إبطاه فيخلع لحاف الوبر ويفترشه بين صخرتين ظليلتين ويستلقي، يلمح تيسًا من تيوسه يعاشر عنزة فيضحك قائلًا: "بختك.. تأكل متى شئت وتركب متى شئت". تمرّ دقائق الرعي بطيئةً مملّة فالمشهد هو نفسه كل يوم لا يتغيّر، الجبال خلفه وتمتد أمامها أرضٌ شبه صحراوية، بها أعشابٌ متفرقة تأكلها الأغنام طول اليوم ولا تنتهي منها، لا يمر به عابر سبيلٍ إلا نادرًا فيؤنسه بكلمتين وينصرف بعد ذلك لشأنه، الصقور تدور حول قمم الجبال في حركةٍ دائبة كأنها تطوف حول معبد، الهدوء ممل و**المحلق** يريد أنيسًا، لا يجد إلا ذكرياته، يضع رأسه على اللحاف، شعره يتبعثر في كل الاتجاهات، يضيّق عينيه المحفوفتين بشعيراتٍ دموية رقيقة يسترجع ذكريات صباه وطيشه، ينتبه.. يتذكّر.. يوقف بكرات الذاكرة عن الدوران، إنه طوى بزواجه صفحاتٍ كثيرة مظلمة ونشر أخرى ناصعة، تدور البكرات في الاتجاه المعاكس فيرى مستقبله المتخيّل الذي

يريد، أن يصبح تاجرًا ثريًّا ملتزِمًا، يصون **تاجوج** وينجب منها قبيلةً بأكملها، يذهبان معًا إلى الحجاز للحج ويسكر من جمالها نشوةً حلالًا كل ليلة ويدفن ماضيه بغير رجعة، يتمنّى أموالًا كثيرةً لا تُعد وحشمًا وخدمًا يسدون للشمسِ عينها، المال يحل جميع المشاكل، ودّ لو ينفلق الجبل الذي خلفه عن كنزٍ من الذهب والجواهر، يتذكر توسُّلات أمه لخاله **الزعيم** من أجل تخفيض المهر، أوشكت أن تخسره بسبب مغالاته في مهر ابنته، لكن المحلق قرر أن يركب الصعب ويحفظ ماء وجه أمه فجمع المهر وزيادة، ما يخفيه **المحلق** عن الجميع هو أن جزءًا من المهر قد نهبه من تاجرٍ نوبيٍّ فاحش الثراء. انتصب على طوله وهشّ الغراب عن الصخرة البيضاوية وطلع عليها مقابلًا الجبل، دهمته رائحةُ بول إبل تأتي من بين الشعاب، نظر للجبل بثبات وضع يديه أمام فمه متأهبًا للصياح وقال: "افتح يا سمسم فأنا علي بابا الحمران.. افتح ودعني أجمع الذهب والجواهر".

***

نعق الغراب مرةً أخرى كأنه ينادي.

13

كانت **رحمة** تستعدّ لزيارة أمها، ثقُل بطنها كثيرًا وبرز كالبطيخة، أرسلت لها أمها أحد الصبية تطلبها، ارتدت جلبابًا أخضر مزركش الأطراف وحفّت حول رأسها طرحة حريرٍ أبيض، استأذنت حماتها فأذنت لها وطلبت من **أميرة** مرافقتها، ساعدتها **أميرة** في الركوب على الجمل وقادته ماشيةً تحكم قبضتها السوداء على خطامه، استغربت **رحمة** شهرة **أميرة** في القرية فهي ما تمرّ بسيدٍ أو عبد إلا وتنهال التحايا عليها، تقلب ردفيها وإليتيها في حركةٍ راقصة وتسلّم على كل فردٍ باسمه، شاغلها من على ناقةٍ سوداء تتمعّج في مشيها وتتغنّج،شاغلها مسنٌّ ناصع بياض البشرة بارز الأسنان العليا كل شعرةٍ في جسمه شاخت،"سمعتُ البني عامر يتداولون أنهم وجدوا دينارًا من الذهب على ضفة **باسلام**"، قال الشيخ فاهتاجت **أميرة** وقبضت ملء يديها ترابًا ورمته به فضحك الشيخ ضحكة اهتز لها جسمه ثم تابع في إغاظتها قائلًا: "والله يا **أميرة** أنت شاردة من الحور العين.. متى ستأتين لنتمّ الأمر؟"، دارت **رحمة** وجهها بالطرحة، قالت **أميرة** وهي تعاود الإمساك بخطام الجمل: "لا تستعجل.. أنت من سيذهب للحور العين يا شيخ **عثمان**"، وفات شيخ **عثمان** ضاحكًا بصفاء، وصلت ضحكته **أميرة** و**رحمة** وهما تنعطفان مرورًا بالمسجد الذي شيّد من أخشاب الأندراب

والدوم، غرفة مستطيلة سُقفت حديثًا بالصفيح المستورد بعدما كانت مسقوفةً بالزبل والقش، يخرج منه المصلون بعد فراغهم من الظهر عجلين لحاقًا بأشغالهم، مرّتا بتكية **البجاوي**، شاغلت **أميرة أوهاج**: "يا بركة.. املأها بركة"، فصاح **أوهاج**: "ألم يعُد **شنشروت** من مصر بعد؟". وفاتت دون أن تجيبه.

14

حكاية **أميرة وشنشروت** الحرامي تعرفها كل **عناتر**، و**شنشروت** رجلٌ كان يمر بديار الحمران كل جمعة، يدخل سوقها ويمكث به ويخرج مع الغروب، وذات جمعة صادف **أميرة** وهي تبتاع بعض الحاجيات لبيت **الزعيم** فأظهر لها إعجابه وتملقه واستدرجها بالكلمة الطيبة واللسان المعسول حتى أناخت، تظاهر بحبها وأبدى لها أمارات العشق والهيام، كان نحيلًا ناتئ عظام الصدر والوجه إلا أنه وسيم أصفر السحنة ذو شاربٍ طويلٍ يربط الخروف في مراحه، وأصبح يوم الجمعة دون أن يشعرا موعد التقاءهما في السوق، وشيئًا فشيئًا بدأت لقاءاتهما تأخذ خصوصيةً أكبر وصارا يلتقيان في الوهاد والخلاء من وقتٍ لآخر وسألتْه **أميرة** أكثر من مرة: "هل صحيح يا **شنشروت** أنك تحبني؟"، "أي والله"، "ما الذي يجعل رجلًا أبيض يحب سوداء؟"، "الحُب"، "ويجعل الرجل أيضًا يحب امرأةً أكبر منه بسبع سنوات؟"، "نعم يا أميرتي"، "والحب يجعل الرجل يحب امرأةً هو أحلى منها؟"، "هههه.. نعم"، ولم يزل **شنشروت** يُسمِعها كلام الحب وأشعار الهيام حتى ملك قلبها، واستدرجها ذات جمعة في الخلاء وعقد معها اتفاقًا: "سأهديك هديةً تتذكرينني بها يا عزيزتي لأنني مسافر لأرض مصر للعمل ولن أعود إلا بعد عامين وأول شيء سأفعله عندما أعود هو أن

أتزوجك يا حبيبتي.. لكنك ستهدينني هديةً أيضًا أتذكرك بها.. سأهديك دينارًا من الذهب وتهدينني سلسلًا من الذهب". فقالت **أميرة**: "ومن أين **لأميرة** الخادمة بسلسل الذهب يا **شنشروت**؟"، "أيعقل أنكِ في بيت **الهاكين** ولا تملكين قطعةً ذهبٍ واحدة؟"، "لي إسورتان هما كل ما تركته لي أمي"، "عظيم إذًا.. تأخذين الدينار وتصرفينه وتشترين سلسلًا وإسورة وأنا أحفظ إسورتيكِ معي حتى أذكرك طيلة العامين حتى إذا عدت أرجعتهما لك"، وتوجّسَت **أميرة** ليلتها تلك وكانت لا تزال شابة اشتُريت حديثًا من **عبد الحميد** أخو **الزعيم**، وغلبت حلاوة لسان **شنشروت** توجسَها، تتذكّر كلامه: "**أميرة**.. أنتِ شاردة من الحور العين والملائكة الآن تبحث عنك". والتقيا في الموعد المضروب وتجاسدا على ضفةِ **باسلام** وأسكرها **شنشروت** حتى ما عادت تفرز الليل من النهار، وبعد أن فرغ منها وأوشكت أنْ تنام همس في أذنها: "الدينار تحت هذه الصخرة، عندما تصحين خذيه"، ومال عنقها وغطّت في سُكْرٍ عميق. يقول الشهود لاحقًا إنهم عندما أفاقوها نهضت مفزوعة، لم تجِد الإسورتين على يديها ولم تجد دينار الذهب تحت الصخرة بل وجدت بعر الخراف معجونًا في شكلٍ دائري فجعلت تصرخ وتولول: "**شنشروت** غش الحورية التي شردت من الحور العين.. **شنشروت** سرق أساور الحورية ولم يعطها دينار الذهب".

15

صادف **المحلق رحمة** عند مدخل دار **الهاكين** وهي عائدة من مشوارها مع **أميرة**، ساعدها في النزول من الهودج وتبادلت معه حديثًا مهموسًا مفاده أن أمها تُصر عليها أن تفارق مع زوجها دار **الهاكين** للعيش في بيتٍ منفصل وقالت: "حلفَتْ بالله إن لم أضع ولدي الأول في بيتها فهي لا تعرفني ولا أعرفها.. سمعتَ بتحضيرات حماتي للولادة"، "وما المشكلة إن ولدتِ في بيت حماتك؟"، "أنتَ تعرف أمك وزعلها.. كل هذا بدأ منذ أيام زواجك.. ما فعله خالك"، "إييه كلام حريم.. خليني مِنْه"، وأتاهما صوت المؤذن للمغرب من على سطح المسجد وطنين ناموسٍ قراص، تأكدت **رحمة** ألا أحد قريب وسألت **المحلق** قبل أن يهم بالدخول: "ما الذي حصل في خيمة الضيفة ليلة أمس؟"، "ماذا.."، "ألم تسمع؟.. حاول أحدهم قتل **الزعيم**"، "..."، "ويبدو أنهم يحاولون لمّ الموضوع.. أنا أيضًا عرفت صدفة من **أميرة**"، وصرصر الباب الخشبي وأطلّت **تاجوج** برأسها كأنها تبحثُ عن شيءٍ ما.

16

رحمة بنت علي هي الأخت الصغرى **للمحلق** والزوجة الأولى **لعلي الهاكين بِكْريّ الزعيم**، وُلدت بعد خمس سنواتٍ من ولادة **المحلق** ونشأت مدللةً في بيتٍ متواضع، أبوها كان يكسب رزق اليوم باليوم في السوق لكنها لم تشعر بأي نقصٍ أو ضيق ذات اليد، عكس **المحلق** والذي قصد أبوه تهيئته للاعتماد على نفسه منذ سنٍّ مبكّرة، اعتنى بها أبوها فعلمها الصلاة وأحكام الدين ودرست الفقه عن شيخه **سيدي عبّاس** فنشأت متدينةً إلى حدٍّ ما، لم تلتزم بالنقاب واكتفت بالحجاب، في عينيها حَوَلٌ خفيف لا يلاحظه إلا المتمعّن، عادية الجمال ومقبولة، سبقتها سمعتها الطيبة وتديّنها فخطبها علي آخذًا بنصيحة أبيه، الحديث الشريف: "اظفر بذات الدين تَرِبَتْ يداك". لها ذائقةٌ موسيقية فريدة وتحب سماع الربابات وأغاني الرعاة وإنشادهم، ألّفت مع زوجها لحن الربابة الأشهر الذي عُرف به الحمران وأسمياه (شبابيت) والذي عاش لعدة قرون وكان الحمران شديدي التعصب لهذا اللحن ويضربون من أجله بالسيوف والرماح، حتى أنّ الهدندوة كانوا يعذبون أسرى الحمران بالعزف على الربابة هذا اللحن المقدس.

17

كانت **تاجوج** تأكل بثلاثة أصابع وتقوم من الأكل ويدها نظيفة مثلما جلست إلّا أنّ **المحلق** كان أخرقًا، قالت **تاجوج** وهي تمدّ له الرغيف الطازج: "إن من حاول قتل أبي يشكّون أنه من الهدندوة"، عرف **المحلّق** أنها سمعت حديثه مع **رحمة** فسألها: "ألا يبدو أنه من أين؟"، "قالوا إن شكله شكل الهدندوة وملابسه ملابس البني عامر ولسانه لسان الحمران"، "شيطان يعني؟"، ابتسمت **تاجوج** وأردفت بعد أن أتمّت بلع لقمتها: "أنا أحس أنها مكيدة من عوائل الحمران"، سهما للحظات يحدقان في أطباق الأكل أمامهما، صدر حمامة وشيّة ضأن وقطَع من أصلةٍ مشوية يحب **المحلق** أكلها بالشطة والبصل وقدحٌ للشوربة، "لماذا لم تخبريني بهذا الأمر منذ أن حصل؟"، خرج صوت **المحلق** واهنًا، ازدردت **تاجوج** ريقها وقالت: "ها أنا أخبرك الآن"، "كيف حال أبيك الآن؟"، "بخير.. نسيتُ أن أخبرك بالأمس.. انشغلت، كنتُ قلقةً على أبي"، فقال **المحلق** صارخًا: "أنا أسكن دار **الزعيم** وآخر من يعلم". ثم قام مُغضبًا، قامت **تاجوج** تلملم الأكل والغصة تشرق لهاتها.

ليلتها رأى **المحلق** دموع **تاجوج** لأول مرة، كانت تبكي في صمت حتى لا يسمعها أحد، خيطُ الدمع الصافي يشق خديها النديين نزولًا للحنك وتُدير ظهرها لمدخل القطية وتتظاهر

بالبحث عن شيءٍ في صندوقها الخشبي المزخرف، شفتاها اللعساءان ترتجفان ارتجاف المقرور، رموشها تلاصقت من أثر الدمع وغشيت وجهَها حمرةٌ خفيفة، انتفخ وريدان على جبينها محتقنين بالدم، تقول لنفسها: "أنتِ المخطئة يا **تاجوج** فهو زوجك و**الزعيم** خاله وكان يجب أن يعرف"، يتصل خيط الدمع بخيطٍ آخر، "يظنني أتجنّبه وأنا أفكر فيه إلى حين عودته وأجتهد طول النهار حتى أجهّز له لقمة هنيّة ولا أنام حتى ينتهي الحديثُ بيننا كل ليلة وأتأكد أنه نام". كانت جادّة عندما سألت **أميرة** وضحكت **أميرة** بسؤالها حتى أدمعت عيناها: "كيف تظهر المرأة حبها لزوجها؟"، فأجابتها **أميرة**: "الرجال يحبّون من المرأة شيئين، يدها الطباخة وعبّها الدافئ.. ما من شيء يدعو للخجل يا بنت أصبحتِ كبيرة ولك زوج وهذا طبيعيٌّ بين أي زوجين". وكانت **تاجوج** ترتبك وتتوتر كلما حكت لها **أميرة** عن حميميات العلاقة الزوجية كأنها ستخوض جرمًا لا يُغتفر، تقول **أميرة**: "بهذا الذي أراه أمامي أسأل الله أن يثبتك يا بنتي بعد اكتمال هذا العام.. لا تزالين صغيرة على هذه الأمور"، دخل **المحلق** القطية فسارعت **تاجوج** تمسح دموعها، عندما رأى وجهها المحمر وعينيها النديتين سألها ملهوفًا: "هل تبكين؟" ، "دخلت عيني حصاة". أغلقت الصندوق ووقفت تداري حزنها بالنظر إلى الأرض، رفع **المحلق** رأسها مطوّقًا بكفيه الكبيرتين خديها، تراخت رجلا **تاجوج** من هول الموقف وأحسّت أنه سيغشى عليها لو قام **المحلق** بأية خطوةٍ أخرى، رائحةُ شعرها تدوّخه وتجعله يغوص في عالمٍ من الانتشاء، كل قسمٍ منها يوقظ

ملَكَات شِعره، كل قطعةٍ بها سرٌّ إلهي. "أنتِ حفيدة **يوسف**.. ورب الكعبة"، قال **المحلق**، حاولت **تاجوج** استرجاع وصايا **أميرة** لكنّ ذاكرتها أوصدت بالمغاليق، لا تحري كيف تتصرف فتستسلم و**المحلق** يتحسس وجهها، أوشكت عيناه أن تزوغا من أثر اللحظة، عينا **تاجوج** تتوهجان محبةً وخوفًا، عينان لو لم يكن الناظر فيهما ذا يقينٍ لسقط مبهوتًا، يتفجّر السحرُ في أركان القطيّة وتتلاشى جدرانها، يتنسَّلُ قشها مع الزبل مشتتًا في الجو، يداعبُ أنفها بأنفه، يحركه يمينًا ويسارًا ومع كل حركة يحس بعينيه تنجذبان نحو عينيها بخيوطٍ خفيّة، يتعملقان، القطاطي تحتهما تصغر وتغرق في الظلام، يزدادان طولًا حتى يفوقا جبل **أسير سلالات**، الأرض تحتهما بعيدة والسماء بعيدة رغم أن النجوم تطفو حولهما ويغتسلان بنورها، يقترب من وجهها أكثر.. حدّ الالتصاق، يحرك رأسه يمينًا يسارًا، تحتكُّ شفاههما، ومع كل احتكاك ينثالُ دفءٌ رهيب بين صدريهما، تتأرجح النجوم يمينًا ويسارًا على محورٍ واحد، **تاجوج** صاحيةٌ نائمة، أنفاسها تصعد وتهبط بإيقاعٍ منتظم، لا تسمع الآذان غير تأرجُح النجوم وصوت زغاريد بعيدة يأتي من أسفلهما، من الأرض، لا.. بل من كل اتجاه، زغاريدٌ تخرجُ من آلاف الحناجر مختلفاتٍ في الطول والحدة، تتجاوب مع أصدائها المرتدة من الجبال فيعلو الصوت كأن الكون كله يزغرد.

***

(باسها).

18

أيقظت شمسُ الضحى **تاجوج**، لمّا استجمعت كامل وعيها وجدت نفسها بين ذراعي **المحلق** وهو يحتضنها باشتياق، انتفضت من البرش قائمةً على طولها وأفاق **المحلق** على صوت ولولتها المهموسة، عيناها جاحظتان كأنها قامت في ساعةِ الحشر "**المحلق** ماذا فعلنا؟"، سألتْه بهلع، فتح **المحلق** عينيه جاهدًا، سقط ضوء الشمس على وجهه فجهره، قال متثائبًا: "آآآآآه.. أصبحنا وأصبح المُلك لله، مالك يا بنت؟"، "ماذا فعلنا؟"، "عن أي شيءٍ تتكلمين؟"، "عندما صحيت وجدتني هنا"، وأشارت لموضع نومها، "فعلنا ما يفعله كل رجلٍ مع زوجته"، قال **المحلق** لاعبًا بأعصابها عابثًا بشعر صدره، كتمت **تاجوج** صوتها واضعةً يديها على فمها، جلست على حشية الصوف التي أمامها تتحسس جيدها الأبيض بكفٍّ مرتعش، قالت: "مصيبة لو علِمَ أحدٌ بهذا الأمر.. **تاجوج** تنام مع زوجها قبل انتهاء الحول"، اتكأ **المحلق** بكوعه على البرش وفلّ بيده شعر رأسه الأشعث وقال بصوتٍ ضعيف: "ما شاء الله.. هالله هالله يا ست الحمران". وضيّق عينيه وعض شفته في حركةٍ مثيرة. "**المحلق** الله يرضى عليك قل لي إنك تمزح"، نظر **المحلق** إليها بعينين باردتين ساخرتين من سذاجتها وعندما لاحظ أنها قد

تنفجر باكيةً في أية لحظة قال لها وهو ينهض: "كانت بوسة فقط.. على خدك". فسكنت **تاجوج**.

خرج **المحلق** من القطية وهشّ حمامات الدار، طار بعضهنّ وصمدت أخريات، أصبح يرى العالم بألوانٍ جديدة، يتابع بنظره الحمام الذي طار عاليًا، ابتسم ابتسامةً بيضاء صافية.. بها راحة.. بها سكينة.

يخرج برفقة بهائمه جائبًا الشوارع مرددًا أشعاره عن **تاجوج**، يسمعه الجميع ويتعجّبون، يحسده أعداؤه ويغبطه أصحابه، وتحمل الألسن الأشعار وتدور مع فناجيل القهوة في التكيّة وتتنقّل مع المشتروات في السوق، والكلام يصل آل **تاجوج** ويفوتهم ويتغاضون عنه، تكلّمت معه **رحمة** أكثر من مرة، تخبره ألا مشكلة في أن يمدح الرجل أخلاق زوجته أمام الناس، لكن العيب كل العيب أن يصف جسدها، لكنه لا يأبه ويردد: "ليسمع من شاء أن يسمع.. **تاجوج** خُلقت لي وحدي وهي ملكي أنا.. هل يستطيع رجلٌ أخذها مني؟".

19

كان وِقْفَتْ عديلة وكان مشت عرجونة

تلَّاها الكِفيل اتخنتلت من لونه

كان ضحكت تقول برق الضلمّة سنونا

كان نطقت معاهِن في الكلام موزونة

20

منتصف النهار كانت قطية **حفصة** تعجّ بالنساء، زارتها اليوم جاراتها لشرب القهوة وقراءة الطالع وليعرفن أكثر عن محاولة اغتيال **الزعيم**، مثل هذه الجلسات لا تكتمل إلا بوجود العرافة **سرو** والتي تقرأ لكلٍّ منهنّ ما يدسُّه لها فنجالها، وكل امرأةٍ تتشوق لمعرفة طالع الأخرى أكثر من طالعها، في مثل هذه الجلسات تتغيّر مكانة **أميرة** فتجلسُ بينهنّ كأنها واحدةٌ منهنّ لتقود دفة الحديث كيفما شاءت، حكّاءة ماهرة تعرف ما يثير فضول النساء. القهوة عادةً في مثل هذه المناسبات تقوم بإعدادها **حفصة** بطقوسها الخاصة وترغب **تاجوج** في حضور هذه الجلسات لأنها تروّح عنها ملل المكوث بالدار طيلة اليوم وأما **رحمة** فتحضر إرضاءً لحماتها فهذا الأنس النسائي يضايقها كثيرًا ويجعلها تحس كأنها تجلسُ على مصيبة، "**تاجوج** يا بنتي كيف حالك مع الحياة الجديدة؟"، سألتْ **نائلة** وقد كانت أكثرهن هدوءًا وأرقاهن طبعًا، أجابتها **تاجوج** على خجل: "الحمد لله.. الأمر ليس صعبًا كما كنت أتخيل". رمقتها **أميرة** بنظرةٍ ماكرة وقالت وهي تلوّح بكفيها: "عندما يحين وقت الأولاد سنرى إن كان الأمر صعبًا أم لا". احتقنت القطية بدخان بخور الصندل وبدأت حبوب البُن الرشيدي تطقطق على المقلاة كأنها مسكونة، حفصة تعد القهوة وفقًا لأصول البني عامر رغم أن

جاراتها يفضلن الحمرانيّة، أصواتهن تعلو تارةً حتى تقارب الصراخ وتخفض أحيانًا حد الهمس حتى يُظن أن القطية خالية، **أميرة** كانت صاحبة أعلى صوت وصاحبة أكثر الضحكات مجونًا، "هل سمعتُنّ بفضيحة **حمّاد وعبير**؟" سألتهنّ **أميرة**، فقالت **سلامة**: "قالوا إنها هربت معه لأن أبوها رفض تزويجها له"، وقالت **سكينة**: "**حمّاد** مجرم.. أكل عقلها وأقنعها بالهرب"، وردّت **أميرة** مقاطعة: "لالا.. ليس هذا السبب". فقالت **حفصة** متعجبة: "علاقة **عبير وحمّاد** مشهورة يا **أميرة**.. قصة حبهما تعرفها كل القبائل، كيف تقولين إن هذا ليس السبب؟". تورّكتْ **أميرة** تأهُّبًا لحكي القصة وقالت بثقةٍ وصوتٍ خفيض: "الصحيح في كلامك يا **سلامة** أنّ أبوها رفض **حمّاد** لكن سبب الهروب قالوا والله أعلم إنها حامل". فشُمطت أعصاب النسوة وتحدبت أعينهنّ، مدّت **أميرة** رأسها وأخفضت صوتها أكثر وقالت: "حامل من أخيها"، شهقت **حفصة** شهقةً طويلة ولوت **رحمة** عنقها. "كذابة!" قالت **سرو** ضاربةً صدرها بكفها. "أعوذ بالله"، قالت **سلامة**. "حسبي الله ونعم الوكيل.. أصلًا قبيلتهم هذه لا تعرف الحياء ولا يأتي من ورائهم إلا الشر"، أردفت **سكينة**.

21

أميرة هذه وُلدت ونشأت في الحقيناب، تنقّلتْ مع أمها في صباها بين البيوت تعملان بالإيجار وتعطيان أتعابهما لمالكهما ويجازيهما بمسكنٍ آمن لا تجوعان فيه ولا تعطشان، **أنف البعير** قايضَ أمها بمُهر عربي أثناء مرور قافلةٍ تجارية من سنّار إلى سواكن وكبُرت في بيته وولدت **أميرة**، اشتراها **عبد الحميد الهاكين** هي وأمها من **أنف البعير** الأخ الأصغر **لأبي سهمين** كبير الحقيناب وانتقلت بعد ذلك إلى بيت **محمد**، لم يشاورها أحد ولم تُذكر لها سيرة، جاءت النقلة فجأة، ناداها **عبد الحميد** ذات ضحًى عندما كانت تجرش الذرة أمام قطية الطبخ وقال لها: "الرزق نوعان: رزق تبحث عنه وآخر يبحثُ عنك.. احزمي ملابسك يا **أميرة** ستذهبين مع أخي **محمد**.. نعمة وجاءتك من السماء"، وكان **محمد** وقتها حديث العهد بالزعامة، ودّعت **أميرة** أمها بصمت خلف قطية الطبخ وقالت لها أمها وعيناها تقطران دموعًا مُرَّة: "سيكون حالك أفضل.. ستخدمين في بيت **الزعيم**.. سأزورك من وقتٍ لآخر". نفضت **أميرة** عن نفسها الدقيق وحملت ملابسها القليلة التي لفتها لها أمها في دموريَّةٍ بيضاء ومضت. الحكايات التي سمعتها **أميرة** حول أبيها كثيرة ومتضاربة لكن القصة الصحيحة حول من هو وحول ما جرى له دُفنت مع أمها منذ وفاتها ولم تسعَ **أميرة** كثيرًا وراءها.

22

غشي **المحلق** صديقه **النور** في داره وخرجا معًا إلى النهر، ربطا خيلهما إلى شجرة سدرٍ وحيدة على الضفة وتجوّلا على طول الشاطئ و**المحلق** طلق الوجه. "أراكَ مبسوطًا يا **المحلق**.. هل وجدتَ كنزًا بين الجبال؟"، سأل **النورُ بن اللمم** فأجابه **المحلق**: "لو كان هناك كنز لوجدته.. أنا ألفُّ حول هذه الجبال وأطلع وأنزل وراء بهائمي ولا أجد غير الصخور والأشواك، وكل يومٍ أنادي افتح يا سمسم ولا أرى جبلًا يهتز ولا أرضًا تنشق"، "إذن تحسّنت علاقتك مع **تاجوج**"، "آخ يا **النور**.. ماذا أقول وماذا أصف؟ إن لها خدًّا كالعجين"، طرفت عينا **النور** للحظات، أحسّ بخدرٍ يسري من عنقه إلى خده، استدار مواجهًا أشعة الشمس البرتقالية الواهنة التي تحتضر وقال سريعًا وعيناه العسليتان مثبتتان في خط المغيب: "هكذا هي الأخبار السعيدة"، وشرع **المحلق** ينشد وهو يحدق في النهر:

سدُر أكتاف عُلا وضامر فؤادَه

كِفِل أوراك مُلُس زي الوسادة

إن جابوا العباد وزنوا قصادها

دهب قنطار ونص تفرق زيادة

وانفعل **النور** لحظتها قائلًا: "**تاجوج** ليست خليلة من خليلات **زهانة** يا **المحلق**.. تأتي كل ليلة تحكي لنا ما لها وما عليها"، "حاشا وكلا، **تاجوج** أبعد ما يكون عن الخليلات وصفاتهن"، "القبائل كلها سمعت **بتاجوج** من وراء أشعارك". فقال **المحلق** ناقمًا: "**تاجوج** تستحق أن تعلم عنها كل الدنيا.. وهي في عصمتي أنا.. أنا **المحلق بن علي** من يجرؤ على قول كلمةٍ فيها وأنا حي.. أنا زوجها ومن حقي أن أمدحها"، "امدحها وقل لها ما شئت داخل داركما وليس أمام الناس.. أما فكرتَ أن هذا يضايق أهلها؟ أما فكّرت في العين؟"، "العين حق.. لكن الله خير حافظ"، "هذه نصيحتي وأنت مخيّر". وقال **النور** وهو يبتعد عن المحلق بمسافةٍ آمنة: "ثم إن ما تفعله ليس من الرجولة"، "هل أنت مخمور؟ ماذا تقول؟"، واقترب منه ليشمّه. "زِن كلامك"، "الرجولة ليست في حد السيف يا **المحلق**"، "هه.. والله عجائب آخر الزمن، **النور** المسكين يعطيني درسًا في الرجولة". ابتعد **المحلق** متجهًا صوب شجرة السدر والتي بدت من بعيد كأنها نبتةٌ ضارة، توقف فجأة وقال دون أن يلتفت: "لولا معزّتك عندي لرميتك في **سيتيت** جيفةً للتماسيح".

23

"الأتراك راجتْ تجارتهم كثيرًا"، قال **أبو سهمين** كبير الحقيناب وهو يفلُّ لحيته البيضاء الكثيفة التي تطوق وجهه الشحيم المدوّر، وأردف **نورين** كبير الضراراب: "إنها ليست تجارة بل شيء خطير.. الأسلحة الجديدة التي بدأت تملكها أيادي الهدندوة والبني عامر يجب ألا نتجاهلها هكذا"، وعلّق **أنف البعير** أخو **الشيخ أبو سهمين**: "إنها تقتل من ضربةٍ واحدة ومن مسافات بعيدة"، وقال **عبد الرحيم حمّاد** كبير الشرفاء: "أسلمُ تصرّف أن نمتلك هذه الأسلحة أيضًا". تنحنح **محمد علي الهاكين** وقال بعد أن تأكد من إنصات الجميع له: "الوضع لو استمرّ بهذه الطريقة ستخلو كسلا من الفيلة تمامًا، إنهم يقتلونها بالمئات يوميًّا وإذا احترف الحمران على كثرتهم هذه التجارة فلن نرى فيلًا هنا بعد شهر أو شهرين". وقال **علي الهاكين**: "أنا أدعم كلام أبي.. ما يجب أن نفعله هو أن نطالب الهدندوة والبني عامر بالتوقف عن صيد الفيلة". "ما الذي نستفيده نحن كحمران من الفيلة؟"، قال **أبو سهمين** مجاهدًا كبت غضبه. "وماذا نستفيد من الأسلحة النارية؟ هذه الأسلحة ستوقظ الفتن فلن نبقى نحنُ ولا الفيلة"، رد **محمد علي الهاكين** ببرود مركزًا بصره بعيدًا. اعتدل نورين كبير الشكرية في جلسته وقال: "اصحَ يا **محمد**.. سواكن امتلأت بهؤلاء العجم

وأسلحتهم، يقول العائدون من هناك أن معهم أسلحةً في حجم البغل لها فوهة كبيرة تسع صخرةً كبيرة من صخور الجبل"، "ما داموا مسلمين فلا خوف منهم"، علق **علي الهاكين**، وأردف **أبو سهمين** مغتاظًا: "لكن الخوف من البجا.. بالذات الهدندوة، وأظنهم لن يسمعوا لشخص ولن يوقفوا صيد الفيلة وسيغشون **عناتر** ذات ليلة وينسفونها، حينها لتنفعكُم سيوفكم وحرابكم"، "رأيي من رأي أخي"، قال **أنف البعير**، وانقسم رؤوس العوائل بين مؤيدين لأبي **سهمين** ومؤيدين لقرار **الزعيم**، وفُض الاجتماع بعد تهديداتٍ شديدة اللهجة صدرت من **الزعيم** لكل من يطاوع نفسه ويمتلك هذه الأسلحة الشيطانية.

24

كانا يضحكان ملء شدقيهما وهما يفترشان البرش، **تاجوج** تتأمله وهو يقصُّ مغامراته القديمة، يحكي لها أحداثًا حقيقية تفوق الخيال وأخرى افتراها خيالُه شديدة الواقعية، **وتاجوج** تندهش وتتأثر أو تضحك، تتخيل قصص **المحلق** تحدث الآن أمامها وشخوصها يمشون على أرض القطية ويتكلمون، يتأمل **المحلق** انفعالاتها وتغيُّرات وجهها مع القصص، كأن وجهها بركةٌ صافية تكشف كل ما بداخلها، يتمعّن تعابير وجهها الفاتن فيخضُّ ذاكرته جيّدًا بحثًا عن مزيدٍ من القصص، أحيانًا تُفلتهما القصص وتأسرهما النظرات، تتّقدُ حَبَّات عينيهما اشتهاءً ورغبة فتُطبق **تاجوج** جفنيها الرقيقين مثل ورق الورد أو تهرب بالنظر إلى البرش، يطل عليها **المحلق** برأسه مطاردًا، تنجذب عيناهما بقوةٍ مدمرة، يتورد خد البنت، يمد **المحلق** يده وينخس كفلها فتشهق نافرةً وتبحلق فيه بعينين لامعتين مازجهما الحياء والرغبة، يقرأ **المحلق** بيان وجهها ويبتسم كالمنتشي، يقترب منها أكثر فأكثر حتى يوشك أن يحتضنها وهي على الأرض فتتدارك **تاجوج** الأمر وتتدحرج على التراب، ينهض **المحلق** ويمدُّ يديه سادًا طريق الهرب فتتكوّر في الركن، يقترب منها ويصبح أنفه فوق رأسها مباشرة، تتكوّر **تاجوج** حول نفسها وتطبق جفنيها بإحكام وتردد: "لم ينته العام بعد.. لم ينته العام

بعد". يضحك **المحلق** باستمتاعٍ رهيب ويقبّل رأسها ويعود جالسًا على برشه.

انقضى الثلث الثاني من الليل ونام **المحلّق** كطفلٍ وديع، أطفأت **تاجوج** النيران ورقدت على حشيتها تحدق في سقف القطية، الوجود كله بلون السَّحر، الظلام في القطية ونسمات الليل يبعثان شعورًا بالارتياح والطمأنينة، تتنفس **تاجوج** الصعداء وتفكّ ربطة شعرها فينسدل على صدرها وعلى الوسادة، تشمّه وتتذكّر أشعار **المحلق** ونظراته وكلامه، تبتسم وتنظر إليه وهو يشخر كالبعير ويرقد قربه سيفه، قالت لنفسها: "هذا هو الحب إذًا". وجاء في خيالها الليلة التي سيفعلان فيها ما يفعله أي زوجين فاغتمّت وحملت همّ تلك الليلة، لكن جذوة رغبةٍ اتقدت في أحشائها تلك الليلة وجعلتها تتمنّى أيضًا أن ينقضي العام سريعًا حتى تُجرّب.

25

دار الغراب في مسارٍ دائريٍّ وارتطم بصخرة ملساء تعكس وهج الشمس ولم يتحرّك بعدها، جذب صوتُ ارتطامه **المحلّقَ** من عوالم شروده، الشمس تجلد الجميع بسياطها ولا تُفرّق بين حيٍّ وجماد، البهائم عطشى تستقي المياه من جدولٍ ضيّق، نهض المحلق وطالع الجبل بنفاد صبر والجبل ساكنٌ صامد فلا يومًا اهتزّت الأرض تحته ولا ساعةً انفلق عن مكنوناته، مدّ بصره نحو الخلاء المترامي يسلكه رعاةٌ وتجّار وقوافل بها مئات الرؤوس من الإبل بألوانها بنيّة وسوداء وحمراء تحرّك رؤوسها مثل السواري ونساءٌ راكباتٌ وراجلات، ملتفّاتٍ بأثواب زاهية يغطين بأطرافها وجوههنّ، بثيابهن الصفراء والزهرية والزرقاء والليمونيّة يحسبهنّ الرائي من الجبل شريطًا من الورد على خط القافلة، ما كميَّة الذهب الذي تحمله الإبل في تلك الصناديق؟ وكم قنطارًا من العاج لُفّ في تلك الخرق البيضاء؟ ماذا لو كان أصحابه الهمباتة معه الآن؟ فرصةٌ كهذه لا تعوّض وعادةً لا تأتي الفرص إلا لمضيعيها، تذكّر **تاجوج** وتكوّرها في ركن القطية، لماذا **نورا** جريئةٌ وماهرة و**تاجوج** غير ذلك، هل اختارتا أن تكونا ما هما عليه؟ ولماذا هو طائش و**النور** رزين عاقل، هل وُلدا بهذه الصفات؟ القافلة تسير وتبتعد في رحلةٍ مجهولة المصير بالرغم من أنّ هدفها واضحٌ ومحدد، الحياة مليئة بالفواجع

والمآسي والمشقّة لكنّ بها أشياء رائعة وعظيمة، منها الحب، هاجت قريحةُ **المحلق** فتغنّى وسط بهائمه حتى توقفت عن الأكل ووقفت تنظر إليه، وحطت الغربان فوق الصخور وسكنت الحمامات على الأرض والصقور وقفت على رجليها مشدوهة، عابرا سبيلٍ بجاويّان جلسا في ظلّ صخرةٍ بعيدة منصتَين، رتّل **المحلق** الأشعار في هوى **تاجوج** ولحّنها كيفما شاء وأنصت له كلُّ الوجود كأنه **زرياب** المُغنّي، و**المحلّق** يخطئُ ولا يتوب ويتناقل الناس أشعاره وتصل بيت **الزعيم** ولا تعدِّي هذه المرة على خير.

26

"منذ البداية ما كنتُ راضيةً على هذا الزواج.. رفضنا قبله من هم أعلى مكانةً ومالًا إنما أبوك قال الرحم أولى.. الآن انظري ماذا يفعل.. يقول الشعر فيك بين الناس ولا يخشى لومة لائم"، قالت **حفصة** وهي تنفرد **بتاجوج** في قطيتها، "أبوك سيتكلم معه.. أما أنا فسأسكت لأن هذا (وأشارت إلى لسانها بإصبعها المُحنّى) متبرئٌ مني، يجب أن يترك الشعر وإلا لن ترجعي إليه". فقالت **تاجوج**: "لكن الشعر أصبح كلامه". اعتدلت **حفصة** في جلستها وقالت وهي تهزّ رأسها: "حينها يجب أن يطلّقك". وجاء وقع هذا الكلام كالصاعقة على قلب **تاجوج** وثبّتت نظرها في عيني أمها الكحيلتين، ولما رجع **المحلّق** من رحلة رعيه لم يجد **تاجوج** في قطيتها.

27

"إذا أردتّ **تاجوج** فاعتزل الشعر نهائيًّا". خرج **المحلق** إلى بيت أمه وصدى عبارة **الزعيم** يتردد بين أذنيه، لم يقل **المحلق** شيئًا واكتفى بالوجوم، فار الدم في شرايينه وضاقت عليه الدنيا، ولمّا جنّ الليل عاد لبيت **الزعيم** وقال له: "الدوبيت كلامي ومتنفّسي ولا أستطيع تركه.. ولا أستطيع التخلي عن **تاجوج** يا خالي". وألحّ **المحلق** على خاله في تغيير العِقاب: "لو طلبت منّي نقل جبل **أسير سلالات** لنقلته.. لكن الشعر اعفِني منه"، فكّر **محمد علي** مليًّا قبل أن ينبس: "قبل أن أخبرك الشرط الجديد أريد ضامنًا"، "....؟"، "يضمن أنك لن تقول الشعر مرةً أخرى في **تاجوج**.. أما في غير **تاجوج** فقل ما شئت". طاف **المحلق** على أصحابه طالبًا ضمانهم ولكنهم كانوا يعرفونه جيدًا فتعذّروا واعتذروا، ولما لم يجد شخصًا ليضمنه من أهله قرر أن يذهب **للنور** ويصالحه وأخبره بالموقف، ما تردد **النور** في ضمانة **المحلق** آملًا أن تكون فرصةً أخيرة لتوبته وكان شرط **الزعيم** الجديد أن يتوقف **المحلق** عن الشعر ليلةً كاملة منذ غياب الشمس إلى طلوعها، ثم أقام الشهود والرُّقباء حول بيت **المحلّق**، ومضت تلك الليلة بطيئةً ثقيلة.

28

خرير النهر يطرب الأسماع، رغت الإبل الليلة أكثر من أي ليلةٍ أخرى وأتت إلى **المحلق** روائحُ القهوة والبهار من كل ناحيةٍ، استدار القمر حتى تكوّر وتفجّرت قريحةُ **المحلّق** ودقّ سمعه واحتدّ بصره ورهُفَ حسه، تقلّب في فراشه وقرضت الأكولة لسانه، تدفّق الشعر من قريحته مندفعًا وسدَّ لسانُهُ مجراه، تقلّب ظهرًا على بطن وجنبًا على جنب، نهض وسار جيئةً وذهابًا، فارقه النومُ وجاوره الأرق والليل طويلٌ لا ينتهي ينسجُ ظلامَه إلى مدًى لا حدّ له، ولسانُ **المحلق** يتلوّى بين فكيه وتهِنُ عزيمته فيتذكّر **تاجوج** ويتصبّر، تمرُّ به وجوهُ الخليلاتِ متتابعة ووجوههنّ تقطر نشوةً ودلالًا، قوافلُ إبلٍ تظعنُ مع الشروق وجبال أرض الفيل تتماوَج وتهتز وتنفلق فتتطاير منها قطع الذهب وأحجار الياقوت وحبوبُ اللؤلؤ، موسيقى الشعر تجري مع **سيتيت** فتدوزنُ الضفة وما حولها، يرى الناسَ سُكارى وماهم بسكارى، يتوسّدون التراب جميعهم، كبيرهم وصغيرهم، ذكرهم وأنثاهم وغنيُّهم وفقيرهم، يطربون لصوت النهر وما هو صوتُ النهر، يرقدون على الضفة يُطالعون السماء والتي كانت قريبةً منهم، قريبةً جدًّا، أقرب مما تصوّروا، تتموّج وتتمايد فتضطربُ نجومها ويتشتت نورُها فتبدو كأنها كُرات من الضوء

تعومُ في بحرٍ لُجّي، ولمّا طلع الفجر نغزَ **المحلقَ** صياحُ ديكٍ من إحدى القطاطي فلم يتمالك نفسه وانفجر منشدًا:

كُر يا ديك تصيح ماك البراك تعبان

ما شُفت القبيل قامت من الدخَّان

الصادق يقول أريل الغزلان

والكاضب يقول خُلقت بلا مصران

عارف حشاك مبرود جوفك ملان

هدفَت عَلَي بالليل عنز القِنان

ضاق بي المنام زي الكيروان

وكانت الشمسُ لم تطلع بعد.

29

عندما يهبط الليل تصبح **عناتر** عالمًا آخر؛ تنشط الحركة فيها أكثر ويلعب الصبيان في الباحات بين القطاطي ويجلس السامرون في تكيَّة **البجاوي** مستعدين للحكايات ويخرج العُشّاق لملاقاة حبيباتهم سرًّا والمحرومون لمضاجعة خليلاتهم في **زهانة**، ليالي الصيف تحمل الإحساس بالسكينة وتتكشّف فيها السماء عن كل مدسوس وتصبح أكثر قربًا حتى كأنها ستغطي **عناتر**، تتبادل القطاطي أقداح الألبان بأنواعها وتشتغل النساء في خضّ اللبن حتى يفصلن الزبدة لصنع السمن، نساءٌ أخريات يشتغلن في المشاط الحبشي والذي يغوي شباب الحمران كثيرًا، ونساءٌ يسكُنّ إلى أزواجهن كما تسكن الدجاجة إلى ديكها وكما تسكن الناقة إلى فحلها، في **عناتر** البيوت تطل على بعضها والأبواب مفتوحةٌ على الدوام، تتمدّدُ أكثر في الليل حتى يظنّ الساري ألا حدّ لها وأنها على امتداد الصحراء، بل الأرض كلها، ومع النهار تنكمش حتى تصبح مثل بقعةٍ صغيرة على صفحةٍ صفراء، والنهر حاله من حالِ قريته، **عناتر** قريةٌ تخلو من الشياطين تحيا ما دامت بها الحكاية.

30

لم تكن الشمس قد استحرّت عندما دخلت **حفصة** على **الزعيم** تخبره بمجيءِ أخته، قدِمَ معها **النور بن اللمم وضحى** الخادمة ودخلوا عليه وهو يغلق المصحف ويقوم لاستقبالهم، منذ أن رأى أخته عرف **الزعيم** سبب مجيئها فهي لا تدخل بيته إلا فيما يخص **المحلّق**، أجلسهم على كراسي المهوجني الوطيئة وصاح **لأميرة** أن تأتيهم بالماء والإفطار، وجه **أمّ المحلّق** شاحب ينمّ عن سهرها الليلة الماضية وهي تصبّر ابنها، أرادت أن تتحدّث فاستدرك **الزعيم** أن وجود **حفصة** يضايقها فقال: "هلّا لحقتنا بدلّةٍ من قهوتك قبل الإفطار يا **حفصة**؟"، فانصرفت **حفصة** والفضول يأكل قلبها ولمّا وصلت المطبخ نادت **أميرة** هامسةً فانخلع قلبُ **أميرة** ورمت الطاجن على الأرض، "بسم الله.. هل رأيتِ نكير؟، اسمعي اتركي أي شيء في يدك واذهبي وتنصتي عليهم"، "ومن يجهّز الإفطار؟"، ".. افعلي ما قلته لكِ ولا تفوّتي كلمة".

جاءت **أميرة** بعد زوال الضحى وأخبرت **حفصة** و**تاجوج** بما دار بين **الزعيم** وضيوفه، والذين جادلوه في أمر **المحلق** واستعطفوه فمال قلب **الزعيم** لأخته وقال: "نسأل **تاجوج**". فصرّت **حفصة** وجهها وقالت مستسلمةً: "قولي لهم ما يرتاح له عقلك يا بنتي فالقلب توّاه". ونزلت على المهباش تدقّ البن.

31

"وهكذا أُرجعت **تاجوج لمحلّق**"، قال رجلٌ نحيل بارز الجبهة لوّحت الشمسُ جلده فأصبح نحاسيًّا، يعمل حمّالًا في دار **الهاكين**، استدار **أوهاج البجاوي** والأضواء البرتقالية للمشاعل المرصوصة على حصير التكيّة تضرب وجهه فيتضخم ظله كلما اقترب من مشعل ويندمجُ مع الظلام فيبدو كمارِدٍ سيبتلع القريةَ في لقمةٍ واحدة، يطوف بفناجيله ودِلاله على الجالسين والذين لا يملّون شراب القهوة ولا يحددون لها وقتًا بعينه صباحًا أو مساءً. يقول لهم **أوهاج**: "سبحان الله.. الناسُ في **عناتر** كالبجا تمامًا، ماؤهم القهوة وزادهم الحكايات"، "وماذا حصل مع **عبير وحمّاد**؟ هل عُثر عليهما؟"، سأل **ضريس** مغيّرًا سيرة **تاجوج والمحلق**، أجابه **أوهاج**: "لا زالت قبيلتهما تبحث، يقولون إن أخاها أحرق نفسَه"، تمتم الحضور: "عليه من الله ما يستحق"، "الحمد لله"، "عذاب الآخرة أشد"، "يقولون إنه ممسوس".

32

أوهاج أونور البجاوي اتخذ من **صبيحة** أمًّا له منذ وقتٍ غير قريب لأنها من أعادته للحياة مرةً أخرى وانتشلته من قاع الخلاء والصحراء إلى رحابِ **عناتر**، عثَرَتْ عليه صبيحة عند الحدود مع الحبشة عقب عودتها من أحد مواسم الحج وقد راعها منظره وهيامه في الصحراء بلا وجهة، عرفتْ من الشلوخ الأفقية المرسومة على خده ولكنته التي تتخللها كلماتٌ بداويتية أنه من الهدندوة وعرفت خبره بأنه طُرد من قبيلته بلا رجعة لأنه زنى بحليلة جاره، وقتها كانت **صبيحة** أرملة في بدايات شبابها وكانت وحيدة فاتخذتْه عاملًا عندها مقابل المسكن والمأكل و كلما سُئل في التكيّة عن سبب فراقه لقبيلته وأهله يقول: "عدم المال وسط الأهل غربة".

طردتهُ **صبيحة** من بيتها بعد قتل الهدندوة لناقتها بيومين، عند عودته من التكية للبيت آخر تلك الليلة وجد كل ملابسه وأشياءه في خرقةٍ من الدمّور مربوطةٍ بإحكام، كانت جامدة الملامح تجلس وسط الظلمة على برشٍ في منتصف القطية، لم يدُر بينهما حديث، لم يسألها عن السبب، وجد كومة الدمور أمام مدخل القطية ونظر إليها مستفسرًا، قالت له ببساطة: "ارحل من هذا البيت". فرحل، ورغم طردها له لم ينسها أبدًا وظل يزوّدها بالطعام ونقود الفضة من حينٍ لآخر.

33

كانا يرقدان على الفراش والنيران مطفأة، **المحلق** أدار ظهره **لتاجوج** ولم يقل شيئًا، رفعت **تاجوج** رأسها لتتبيّن هل هو نائمٌ فعلًا أم يتظاهر، رأت جفنيه مطبقين بثبات، لكن الغريب في نومه هو أنه لا يشخر كعادته، مدّت يدها لتوقظه ولمست أصابعها الدقيقة كتفه، سحبتها وتنهّدت عميقًا محاولةً إسماعه لكنه جامدٌ لا يتحرك، يئسَت منه واقتنعت أنه نائم ووسوست نفسُ **تاجوج** لها: "هل كان يحبك منذ البداية أم أنه يريد أن يفاخر بفوزه بك أمام الناس؟ إنه لا يتحدث معك مثل كل ليلة ولا يُضحكك بقصصه الطريفة التي يحكيها لكِ بعد عشاء كل يوم". وقالت **تاجوج** لنفسها: "أم أنّ أبي قال له شيئًا لا أعلمه؟ آآخ يا **محلق** ليتك لا تصمت هكذا". و**المحلق** لم يكن نائمًا، كان مشغول البال محزونًا، يسأل ذاته الكثير من الأسئلة وكلما عجز عن إيجاد أجوبة ازداد كرهه لذاته، من يراه ساكنًا هكذا يحسبه خالي البال، لكنّ باطنه لو انشق للناس لرقّوا لحاله، لماذا يُعامل من الجميع كطفل؟ هل **تاجوج** لعبة يدسّونها متى أرادوا ويعطونها له متى شاءوا؟. في كل مواقف حياته كان يُعامل معاملة غيرِ المسؤول، أمه كانت تفضل عليه ابن أخيها في كل ما تحتاجه والأصحاب لا يلجؤون له في المشورةِ والرأي، المشورةُ والرأيُ كانا من نصيب **النور بن اللمم**، هل الناس يحترمونه في

عناتر ويقيمون له وزنًا أم يخافونه ويشتمونه من خلفه؟ كيف يستطيع أن يتبيّن حقيقةَ نفسه؟ إذا كان غير مسؤولٍ فهكذا قد جاء للدنيا، يرى أنه على صواب عندما أنشد الشعر في **تاجوج**، شعوره بالدونيّة يسحقه ويدوس عليه، يتكوّر الإحباطُ بين رئتيه وحجابه الحاجز، همستْ له نفسُه: "قتلتَ.. نهبتَ.. زنيت.. سكرت.. لا تستحق **تاجوج**"، يحس أن مكانته قلّت في نظر **تاجوج** بعدما حصل، قال **المحلق** لنفسه: "هل أصبحَت لا تحبني؟ لماذا لا تتحدث معي كما كنا نتحدث كل ليلة؟".

34

صحت **عناتر** على خبر موتِ **صبيحة**.

جاء جماعةٌ خرجوا للصيد بجثتها ملفوفةً في حصير محمولةً على حصان، وجدوها في الخلاء على ناقتها الجديدة وخيوط الدم تجري على ظهر الناقة وبطنها، كثيرٌ من الناس تداولوا أن سبب قتلها هو ذاك السلاح الجديد، وجدوا خرمًا صغيرًا على فوق قلبها مباشرةً يبقبقُ منه الدم في كل الاتجاهات، ماتت وحيدة كما عاشت، لم يبكِ في جنازتها إلا **البجاوي** وبعضُ جاراتها، **البجاوي** نزل على التراب محتضنًا لفة الحصير بحرقة، مقطوعٌ يبكي مقطوعة، ما هان عليها طرده من بيتها لكنها أيضًا كانت ستقتله لو بقي معها فأطياف ناقتها القتيلة والتي قتلها الهدندوة كانت تمنع عنها النوم، تلك الناقة آخر ما بقي من حياتها الأولى، هديةٌ من زوجها جاء لها بها من **عصّار** وقتلها الهدندوة بقلبٍ بارد كأي ناقةٍ سائبة.

بعد دفن الجنازة أرسل **محمد علي الهاكين** رسله إلى شيوخ عوائل الحمران لاجتماعٍ طارئ خرجوا منه منشقين تمامًا إلى نصفين: أتباع **أبو سهمين** والذين دعموا أن يمتلك الحمران الأسلحة النارية وأتباع **الزعيم** الذين قرروا الاجتماع مع زعماء الهدندوة والبني عامر بشأن التوقف عن استخدام هذه الأسلحة النارية ومصادرتها.

"زعامة المحمداب للحمران طالت كثيرًا وآن لها أن تنتقل إلى عائلةٍ أخرى"، قال **أبو سهمين** وهو يرد بئرًا في الطريق ليستقي منها، كان معه أخوه **أنف البعير** وابن عمه نورين شيخ الحقيناب وولده الذي بلغ السعي وكانوا جميعًا عائدين من الاجتماع، سأله **أنف البعير**: "ماذا تقصد؟". وقال ابن عمه كبير الحقيناب: "هل تريد قتل **محمد الهاكين**؟". ونظر **أبو سهمين** لترجرج صورة وجهه على ماء البئر.

35

"البسي له الخفيف واستحمي بالعطر والزيت، تدللي له واسأليه عن أخبار عمله، عما يفرحه ويضايقه، اطبخي له ما يحب.. الرجال كالأطفال يا **تاجوج**، نفس الشيء، إذا استطعتِ أن ترضعيه ثديك فارضعيه"، قالت **أميرة** وهي تضفر **لتاجوج** شعرها، خرج **المحلق** بهائمه باكرًا لحاقًا بدفن **صبيحة**، شرب فنجاله الصباحي على عجل ولم يعد للإفطار. "هل يكون قد أحبّ واحدةً غيري في تلك المدة التي غبتُ فيها؟"، "**تاجوج** يا بنتي، **المحلق** لا يعشق غيرك إلا لو كان أعمى، بنتٌ مثلك عليها حلاوة الدنيا كلها لا تنافسها فتاةٌ في **عناتر** ولا **أرض الفيل**". وقالت وهي تقسم بالمشط الخشبي شعرَ **تاجوج** : "إذا سألتِه عما يضايقه سيخبرك، ربما فعلتِ شيئًا أزعجه دون قصد". وتحولت نبرة **أميرة** لعتاب وهي تقول: "ثم إنك تنفرينه منك بتصرفاتك الصبيانية هذه، هل هو مرفعين وسيأكلك؟ إذا تقدّم منكِ شبرًا تقدمي اثنين، وإذا اقترب ليقبلك اسبقيه في التقبيل، عيشي الدنيا يا بنت، آخرها كوم تراب". فضحكت **تاجوج** ضحكتها الرنّانة وسألتها: "ألم يعُد **شنشروت** من مصر بعد؟"، "سيعود ابن الحرام.. سيعود".

وانسلخ النهار عن وجه الليل، لبست **تاجوج** فستانًا زهريًّا من القطيفة غطّى بالكاد ركبتيها، كشف عن ذراعين ممتلئين

تطوقهما حافة الكم بارتياح، تجوّلها في القطية بهذا الفستان يجعلها غير مرتاحة، تشد أطرافه كل فينة لتداري ما ينكشف من فخذيها، خنقت ضفائرَها بربطةٍ مطاطيةٍ حمراء وجاءتها **أميرة** بخلخال حاد الصلصلة في مقاس ساقها تمامًا يتكشكش كلما تحركت فيملأ القطية رنينًا، حدّدتْ لها **أميرة** حاجبيها بالموس وشالت لها بالحلاوة ما تفرق في جلدها من شعيراتٍ صغيرة، ضمّختْها بالخُمرة[11]، طالعت **تاجوج** نفسها في مرآتها و**أميرة** تتمتم: "ما شاء الله سبحان الله". وأوصتها وهي تنصرف: "إياكِ أن تنسي ما قلته لكِ، أنتِ لستِ طفلة". وبدأت **تاجوج** تضطرب فور سماعها صوت باب الدار يصرصر ولم تدرِ بأيّ وضعيةٍ تقف، فلو استقامت لانكشف فخذاها من الأمام ولو انحنت لأطلا من الخلف وإذا جلست لانكشفا كليًّا، قررتْ أن تجلس خلف الحامل الخشبي الذي تضع عليه صندوقها لتستر ما ينكشف منها، تظاهرت بالبحث فيه بينما كان **المحلق** ينحني لدخول القطية، رمى سوطه بعيدًا، كان مرهقًا وجائعًا، زكمه بخور الصندل الذي احتشدت به القطية، ألقى التحية على **تاجوج** وجلس منتظرًا الأكل، لاحظ التغير في تسريحة شعرها وأنها كانت ترمقه بنظراتٍ طويلةٍ مفتعلة يقطعها الحياء ويمازجها التوتر، "أين الأكل يا **تاجوج**؟". فقالت وخدها يصطبغ بحمرةٍ خفيفة: "الأكل جاهز.. يا عشاي"، عقد **المحلق** جبينه وقال: "يا..؟"، فارتجفت شفتا **تاجوج** ولعنت **أميرة** في سرها

[11]/ الخُمْرة عطر نسائي محلي تتعطّر به المرأة لزوجها في فراش الزوجية، يثير الشهوة.

وقالت وهي تضطرب: "سأقوم وأحضّر الأكل"، "قلتِ إنه جاهز"، "أقصد آتي به"، "**تاجوج** ما بك؟". وكانت تشد الفستان من تحت حامل الصندوق لتداري فخذيها عندما تقوم فلاحظ **المحلق** عبثها واقترب قائلًا: "ماذا تفعلين عندك؟"، ولما أطلّ برأسه من فوقها أطبق فمه مانعًا خروج ضحكةٍ انطلقت من بطنه وأمسك يدها مستنهضًا إياها فقامت **تاجوج** وصوت كشكشة الخلاخل يطرب سمعه وقالت وهي تدير وجهها مُطبقةً جفنيها: "**أميرة** قالت لي أن أفعل هذا".

36

لمّا أوشك **المحلق** أن ينزع عنها فستانها اهتزّت جدران القطية وخرجت منها ناقةُ زرقاء وقالت **للمحلق**: "تتزوّج أجمل إنسية وتريد أن تكشف عورتها قبل إتمام العام الأول؟ من تظنّ نفسك؟". فقال **المحلق**: "أنا فارس هذه القبيلة وشاعرها وأشجعُ من مشى على **أرض الفيل**.. من أنت؟". فقالت الناقة الزرقاء: "أنا عفريتٌ من عفاريت الجبل وجئت لأمنعك مما تنويه فهذا ظُلمٌ ما بعده ظلم". فقال **المحلق** شاهرًا سيفه: "إنها زوجتي أفعل معها ما أشاء وقتما أشاء". واقترب من الناقة يريد قطع عنقها لكن السيف ومع كل ضربة كان يصدر صوتًا يشبه ضرب الحديد للصخر والناقةُ جامدةٌ لا تتحرك، فلما توانى **المحلق** بركت عليه فقالت **تاجوج**: "أستحلفك بالله أن تتركه ألا تراهُ هزيلًا تعبانًا؟". فقالت الناقة: "أتركه لكن بشرط.. أن تشقي عنك فستانك". فصاح **المحلق** وانتهرها ألا تفعل فازداد ضغط الناقة عليه وكتمت أنفاسَه، و**تاجوج** حيرانة إما أن تكشف عورتها لهذا الجنّي أو يموت **المحلق**، فلما أوشك أن ينقطع النفَس والناقة مصرة على طلبها قامت **تاجوج** بشقّ فستانها فرأت الناقة ما لم تره عين ولا خطر على قلب بشر واحترقت إلى أن ملأت رائحة صوفها أرض **عناتر** كلها.

هكذا تداول السمَّار الحكاية في التكيَّة.

37

حدادًا على **صبيحة** أوقف **البجاوي** تكيَّته لشهر انقطعت خلاله جلسات الأنس والسمر والحكايات.

المآلات

وهلاكي في الحُب أهونُ عندي

من حياتي إذا جفاني الحبيبُ

عنتر عبلة

1

أخيرًا أحسَّ الصيفُ فارتحل وشرعت سماءُ **زهانة** تُبشّر بقدوم الخريف مرةً أخرى، صراخُ رضيعين يملأ دار آل **الهاكين** وينتزع النوم من أعينهم، تحت سراج الزيت المعلق على سقف القطية كانت **رحمة** تُلقم ثديها للتوأمين لكنهما يأبيان، حلمتاها ترشحان لبنًا من فرط امتناعهما، تستثقلُ صدرها كلما جلست أو قامت لذلك هي راقدةٌ معظم الوقت. يتفقّد **علي** سروال أحدهما، يجده نظيفًا وتربت **رحمة** على التوأم الآخر بإشفاقٍ وتبسمل، "مريضان؟"، "لا أعلم.. لكن هذا ما يبدو"، "هل تعوّذينهما؟"، "صباحًا ومساءً". ولاح في الظلام خارج القطية شبح **أميرة** القصيرة البدينة، "تفضلي يا **أميرة**" قال **علي**. حملتْ **أميرة** أحد التوأمين وطرقت بطنه بإصبعها وكذلك فعلت مع الآخر، قَلَبتهما على بطنيهما وجعلت تدلك ظهريهما بأصابعها في حركاتٍ دائريّة وسألت **رحمة**: "كم مرةً ترضعينهما في اليوم؟"، "منذ الأمس ما رضعا يا **أميرة**"، "عندما كانا يرضعان"، "لا يتوقفان عن الرضاعة إلا للنوم". وضرط أحد التوأمين حينها، "هذا هو السبب، الرضاعة الكثيرة تنفخ بطن الطفل ويجب أن تجشئيهما بعد كل رضعة". وما هي إلا لحظات حتى خرجت كل الغازات من دبري التوأمين وفمهما وكفّا عن البكاء، "هل لكِ قريب حكيم؟ كيف عرفتِ سبب بكائهما؟"، سألتها **رحمة**،

"حياتي كلها أخدم في بيوت الناس ورعيت أطفالًا كثيرين، تعلمت من الأمهات والجدات". وأشارت بسبابتها نحو **علي** وقالت: "هذا الثور الذي أمامك أنا من ربيته.. هو وأخته". فضحكت **رحمة** واستلطفتها وانصرفت **أميرة** قائلةً: "تصبحون على خير يأهل الخير". وخرجت تتبعها رائحة الحنّاء التي تصبغ بها شيباتها، وقبل أن تخرج سألها **علي**: "شاب شعرك وما رأينا **شنشروت** يعود يا **أميرة**". فقالت **أميرة**: "شيباتي صبغتها خصيصًا له، سيعود.. سيعود ابن الحرام سيعود". وقالت لها **رحمة**: "لو عندي نصف اليقين الذي عندك يا **أميرة**..". وانصرفت **أميرة**.

غط التوأمان في نومةٍ هادئة ورقد **علي**، انتبه إلى أنّ **رحمة** ساهمةٌ ببصرها في التوأمين، سألها: "ألن تنامي؟.. إنهما بخير". هزّت **رحمة** رأسها وقالت: "أفكر في شيءٍ آخر"، "موضوع **المحلق** أم والدتك؟"، "الاثنان"، "أملكِ أصرّت أن تلدي التوأمين عندها وقد نفذنا طلبها لماذا تريد أن تقضي الأربعين أيضًا؟.. لا تهتمّي كلها يومان وينتهي الزعل". قالت **رحمة** بصوتٍ واهن: "موضوع أمي هيّن إنما موضوع **المحلّق**". فقام **علي** جالسًا وقال: "أخوك هذا مجنون وسيخرب بيته بيده"، "طيّبْ خاطرَ **الزعيم** يا **علي**.. لعله يصالح بينهما مرةً أخرى"، "المشكلة هذه المرة ليست أبي، بل **تاجوج** نفسها.. هي من تحتاج تطييب خاطر". تنهّدت **رحمة** عميقًا وقالت: "**تاجوج** و**المحلّق** دخلت بينهما عين.. كفانا الله شر الحاسدين".

2

الهموم لا تخرج **للزعيم** إلا من تحت وسادته، كلما هجع انقضّت عليه، الهدندوة والبني عامر رفضوا الاتفاق فيما يخص موضوع الأسلحة، والحمران انشطرت وحدتهم وكلٌّ شطر يسعى لإقصاء الآخر، هناك كثيرون يتمنّون موته بل ويسعون إليه، هذا ما أكّده له من حاول قتله في خيمة الضيافة قبل أشهر قُبيل إعدامه بلحظات، عليه أيضًا أن يخطط للرحلة الموسمية هذا الخريف ويختار المكان ويقسّم الفرسان، قبل أيام أغلق ملف **صبيحة** على أنه حادثة قتل خطأ، فتلك الأسلحة الخطيرة تقتل بقصدٍ ودون قصد، ومن أطلق النار لا تُعرف له جهة حتى الآن، وكل هذا كوم ومشاكل **تاجوج** و**المحلق** كومٌ آخر.

3

أطياف **نورا** لم تغادر **المحلّق** تمامًا وأيامُ المجون يحنّ إليها وتحنّ إليه، فكّر أكثر من مرة أنه استعجل الزواج، فالتغيير لا يحصل بين يومٍ وليلة ويحتاجُ ربما لسنين أخرى حتى ينقطع عن الماضي، هو أيضًا لا يُحب **نورا** وحنينه لها ربما هو في الأصل حنينٌ للماضي حين كان حرًّا طليقًا، لكن هل هو يحبُّ **تاجوج** أم أنّ شغفه لها كان بقصد التملُّك؟ شغف الساعي لتملّك تحفةٍ ثمينة يضعها جانبًا وينظر إليها وقتما أراد، هل هو يتغيّر فعلًا أم يتوهمّ ذلك؟ خاله يتجاهله في كبائر الأمور وصغائرها ولم يستشره في أمرٍ من قبل ولم يطلب رأيه في مجلس، دومًا لم يكن الخيار الأول لأحد، وقبل الزواج هل كان حرًّا فعلًا أم عبدًا لشهواته ونزواته؟ أين الحرية الآن؟ في الزواج أم عدمه؟. لم يخطر بباله يومذاك أن الأمور ستؤول لما آلت إليه.

كان وقتها وحيدًا يجلس خلف القطية، **تاجوج** خرجت مع **أميرة** للسوق، السماء كانت محتجبةً وراء الغيوم، لاحت البروق فأشعلت قريحته وبعثت في ذاكرته أيامَ **زهانة ونورا**، لاح البرق فأنشد وقال والنسائم تداعب شَعره:

بَشِد وارْكَب على ود البُشاري[12]

---

[12]/ ود البشاري: يعني الإبل البشاريّة.

فريوة الريف مع المحزم تجاري[13]

يتِب عَجْلان قَبُل ما أَلِم حكاري[14]

بِليد **نورا** أم **شليخ** الليلة طاري[15]

ولم يفرغ **المحلق** من إنشاده حتى تفاجأ **بتاجوج** خلفه وقد عادت من السوق، فشُلّ لسانه واضطرب عقله، سألتْهُ **تاجوج**: "من هي **نورا** ولماذا تنشدها هذه الأبيات؟". ولم يجد **المحلق** جوابًا فانقلبت أسارير **تاجوج** فورًا وتعكّر صدرها وانقبض وجهها وراحت عنهُ رِقَّة جماله، ضغطت على أضراسها وحكّتْها بعضًا ببعض، "أعِد ما قلته يا **محلق**"، قالت له **تاجوج**، وانحبس لسان **المحلق** داخل فكّه ومادت الأرضُ **بتاجوج** واهتاجت لواعجُ نفسها ووسوست لها شكوكها بأنها ما كانت حبيبته يومًا فخرجت من القطية فارّةً لأبيها.

السماءُ بعيدةٌ وحمراء، بل زرقاءُ تتوشّح الشفق، والغيوم زهور قطنٍ هائمة، كان طريق العودةِ مع المغيب طويلًا لكأنّ الأرض تنفث عبر مسامها السأم والملل، والمحلق يسعى بين بهائمه سعي المضطر، البهائم أيضًا مملة؛ كل يومٍ تأكل نفس الأكل وتمشي بذات الطريق إلى نفس المكان ولعلها تتبادل الأحاديث نفسها، فكّر **المحلق** غير مرةٍ أن يبيعها ويشتغل

---

[13]/ حزام السرج.

[14]/ حكاري: أفخاذي، أي أن جمله يستعد للرحيل إلى بلاد خليلته نورا قبل أن يلمّ فخذيه جالسًا على ظهره.

[15]/ طاري أي ذِكْري.

بالتجارة في السوق، لكن السوق يقيده في مكانٍ واحد، لكنه على الأقل سيجد مؤنسًا هناك، **النور** نصحه ألا يفعل وأن يغيّر أماكن رعيه على الدوام، بذلك سيتجوّل **المحلق** حرًّا أينما شاء وسيعثر كل يومٍ على مؤنسٍ جديد.

الفكرةُ الوحيدة التي حسّنت مزاج **المحلق** هي أنّ عامه الأول مع **تاجوج** قد شارف على الانتهاء، فور أن تخيل نفسه مع **تاجوج** في فراشٍ واحد قفزت إلى ذهنه فكرة الأولاد الذين سيأتون عقب ذلك، كان إحساسه بذلك خاليًا من أي شعور، يرى **المحلق** نفسه أنه آخر من يجب أن يصبح أبًا. في ذات الليلة التي سمعته فيها **تاجوج** يقول الشعر في **نورا** هرع إلى **الزعيم** يشرح له حاله ونسج له من الأعذار ما غطّى على قلبه، كان يعلم أن **المحلق** مخطئ لكنه كان مدركًا أيضًا لحقيقة أن تعاسة **تاجوج** في فراق **المحلق**، قال له **الزعيم**: "القلب قلب تاجوج والكلام كلامها، دعها حتى يصفى قلبها ثم سنرى". و**تاجوج** كانت تنتظر تبريرًا من **المحلق**، تنتظر أن يقول لها إنّ ما سمعته محضُ توهّم، أغلقت على نفسها قطية **أميرة** وما عادت تخرج، و**المحلق** فارق قطيته في دار **الزعيم** إلى بيت أمه.

4

فُتحت التكيّة من جديد وعادت معها جلسات الأنس والسمر والحكايات، أصوات دقّات المهباش أصبحت أعلى وأكثر؛ انضم صبيّان آخران للصبيّين القديمين، عُرشت التكية بالصفيح بدلًا عن القش والخشب، قامت لها أربع حيطان من الطوب جيء به من سواكن، وبدلًا عن السجاجيد والبروش أصبح لها طاولاتٌ ومقاعد من الخشب، أصبح لها بابٌ من الحديد يُفتح ويُغلق وازداد مرتادوها حتى اضطر **البجاوي** لتوسيعها، تغيَّرت التكيَّة كثيرًا لكنّ حكاياتها ما تغيَّرتْ.

قال **البجاوي** وهو يصفّي القهوة من القشور: "لا أظن أن **المحلق** و**تاجوج** سيرجعان هذه المرة". وقال له **النور بن اللمم**: "فال الله ولا فالك.. سيرجعان"، "**المحلق** هذا مجنون والله". قال أحد التنابلة، وقال **ضريس** مغتاظًا: "الحقيناب امتلكوا الأسلحة النارية اتركونا من سيرة **تاجوج** و**المحلق**.. هذه التكيّة أصبحت لا تتداول شيئًا غير سيرتهما". سأله **أوهاج** مهتمًّا: "من أخبرك بهذا الأمر؟". وسرد عليهم **ضريس** أنّ أحدَ عبيد الحقيناب سرّب الخبر إلى شيوخ المحمداب وأنّ قافلةً بها مائتا رأسٍ من الإبل محملةٌ بالأسلحة النارية قد دخلت دار الحقيناب الجمعة الماضية وقال لهم: "قتلوا ثلاثمئة فيل في يومٍ واحد". وقال **أوهاج**: "الله يسترنا.. الحقيناب والهدندوة والبني عامر".

وقال **النور بن اللمم**: "**الزعيم** يجب أن يغيّر رأيه يا جماعة". ودخل عليهم من خارج التكيّة في تلك الأثناء **علي الهاكين** وقال لهم: "**الزعيم** خياراته لا تخطئ، ولمّا وجد أننا الوحيدون الآن دون أسلحةٍ نارية في أرض الفيل قرر أن يتحصّل عليها، لكن دون قتل فيلة، من حر ماله اشتراها". واندهش الجميع في التكيّة مما قاله **علي** وهلّلوا واضطرمت الحماسة في صدورهم، وقال **علي**: "أجلوا الاحتفال إلى حين وصول الأسلحة". وسأله **أوهاج**: "ممن اشتراها والأتراك لا يقايضون إلا بالعاج"، "المهم أننا تحصّلنا عليها"، قال **علي** وجلس إلى طاولة **النور** و**ضريس** وطلب دلةً من القهوة، سأله **النور**: "ومن أين ستأتي؟ يجب أن نؤمّن لها الطريق". قال **ضريس**: "ومنذ الآن"، فأخبرهم **علي**: "لن تأتي بطريق **زهانة** المعتاد، ستأتي من طريق **عرّة الفيل** والذي لا تستخدمه عوائل الحمران أو الهدندوة للسفر". وقال له **أوهاج**: "هل أنت متأكد أن الطريق لا يحتاج لتأمين؟"، "إذا أمّنّا الطريق سنلفت الانتباه، القافلة ستصل ليلة الثلاثاء بهدوء ولن يعلم بها أحد".

5

"**المحلق** يحبك يا **تاجوج**، أنا متأكدة من هذا"، قالت **أميرة** وهي تربت على كتف البنت الراقدة في حجرها، لم تأكل **تاجوج** منذ أيام وبدأ وجهها بالضمور، قلّ منامها وشحب لونها، "انسيني من سيرته يا **أميرة**"، قالت **تاجوج** على مضض. "لو جربتِ ما حصل معي لاستيقنتِ أنّ زوجك لا يحبك، إنه يقول الشعر في بنت اسمها **نورا**.. بنت ليست من **عناتر** حتى". قالت **أميرة** لنفسها: "لم تجربي إحساس الخيانة يا **تاجوج**.. إنّ جرحي أشدّ من جرحك إلا أنني لا أتكلم". وقررت أن تغيّر سيرة **المحلق** التي تنغص **تاجوج** وأقعدتها وقالت لها: "سأحكي لك ما حصل معي عندما ذهبتُ للشيخ **سيدي عبّاس** بخصوص ما يتعلق **بشنشروت**"، واعتدلت **أميرة** في جلستها وتورّكت كعادتها قبل بدء كل حكاية وقالت: "طبعًا تعرفين أنني لا أؤمن بكرامات الشيوخ، لكن ما بيدي حيلة لإرجاع **شنشروت**، ذهبت إلى **سيدي عبّاس** وقلت له: يا الله، فقال لي: لكنني لستُ الله.. أنا عبدُ الله. فقلتُ له: وما دمت لستَ الله لماذا يقولون إنك ترزق الأبناء.. أليس الله من يفعل ذلك؟. قال لي: لستُ أرزق من عندي.. بل أُعطي من عنده قسمة منذ البداية.. أكون سببًا. وقال لي: ألا تؤمنين بأنّ لله أولياءً؟، فأجبتُه: إذا كنتَ وليًّا فأرجِع لي **شنشروت الحرامي**، هل تعرفين ماذا قال لي؟ شوفي كذبه يا

تاجوج"، " وماذا قال يا **أميرة**؟"، "قال إن **شنشروت** ميّت منذ عامين". وحكت لها **أميرة** ما فعلتْه بعد ذلك حيثُ رشقته **أميرة** بالتراب ورمته بأقذع الألفاظ وقالت لها **تاجوج**: "إذا كان ميّتًا أو حيًّا انسيه يا **أميرة**، شوفي غيره". قالت **أميرة** وعيناها تبرقان مكرًا: "سيعود يعني سيعود.. السِّحْرُ من أجل الحب حلال".

.

6

لم يرَ **المحلق** أصحابه منذ أسبوع حتى عدُّوه مريضًا، ما زاره في عزلته إلا **النور** و**علي التقاوي**، لم يطيلا البقاء معه لكثرة شروده وتفكيره، أمه من قامت بواجب ضيافتهما، و**المحلق** تتفلت منه أطراف الحديث كما تتفلت النوق في عُقلها، يستلقي الآن على البرش تصله تنديدات أمه ولومها، كلما تكلّمت انقبض صدره: "خائب.. همباتي.. بحياتك لن تصير رجُلًا"، يجتاحه سيل الذكريات فيغرق، زواجه من **تاجوج** ما أضاف له شيئًا، مرّةً أخرى، أهي تحفة أم حبيبة؟ يلوح له وجه الذئب الجريح الذي قتله في الغابة قبل سنين طويلة، يحسُّ أنه منذ البداية وُلد ليكون شيطانًا، تاجوج لم يُحافظ عليها وهي تكبر وتعلو وهو يصغر، يتضاءل، يتلاشى، البهائم التي يسرح بها في الخلاء هبةٌ من خاله، تركها خلفه، ماذا يشتغلُ لو طلع عليه الصباح؟ أين **نورا** وفتوّة الماضي وأصدقاء الهمبتة؟ يرغي كما ترغي البعير ويكتم، ينفجر صارخًا ويندفع خارجًا من القطية، وأمه المحزونة تخرج قاصدةً بيت **الزعيم** وقلبها يتفطّر حزنًا على **المحلق** والذي بدأت أمارات الجنون تتجلّى عليه.

يصل **المحلق** منهارًا لبيت **النور بن اللمم**، يتكلم معه كلامًا سريعًا ويختمه قائلًا: "ستأتي معي أم لا؟"، "لن تذهب يا **محلق**"، يجذبه **النور** ليدخله بيته، ينازعه **المحلق** ويقول:

"سأُجن يا **النور**.. التفكير يحرمني النوم"، يحاول الفكاك منه، يدفعه وينطلق مسرعًا، يلحقه **النور بن اللمم** خوفًا من ارتكابه لحماقة.

اللهب يتراقص مع الريح ويطرقع والسكارى بين راقدين على التراب وجالسين على الصخور المبعثرة، يضحكون ويخطرفون، **المحلق** شرب القدح الرابع ولم يؤذن له بولوجِ عوالم السُّكر بعد، **النور** يجلس قربه متحسّرًا، دفع إليه **المحلق** بالقدح فدفعها عنه، ترك **النور** هذا الفعل منذ سنوات، أول مرةٍ سكر فيها كانت برفقة **المحلّق** وشلته، كان يظنّ أنها تشرب كالماء فكرعها دفعةً واحدة وقبل أن تنقضي تلك الجلسة كان قد نام نوم أهل الكهف، حمله أصحابه وقتها كالجنازة ورموه عند باب داره ولم يُفِق إلا على نقر الديوك لرأسه صباح اليوم التالي، لكنه اعتاد السكر بعد ذلك وأصبح القدح لا يدوّخه، كانوا يسكرون بمناسبةٍ ودون مناسبة حتى طرّت شواربهم فهدى الله منهم من هدى، "رشفة واحدة فقط"، همس له **المحلق** وهو يمدّ له القدح مرةً أخرى بحركةٍ فاترة فدفع **النور** القدح بشدّة حتى ترجرج ما فيه وتدفق على الحواف وتقطّر على التراب، "جرّب لتنسَ"، قال **المحلق** بعينين هادئتين صافيتين وصوتٍ منهك، "هيّا إن الله غفور رحيم والبشر بطبعهم عاصون.. ألستَ من البشر؟". وبدا وجه **النور** في ناظرَي **المحلق** كوجه نبي، "**تاجوج** المسكينة تركتني ولا تعرف أنني أحبها ولا أحب تلك العاهرة **نورا**، **الزعيم** يظن نفسه الله، يملك كل شيء ويتحكم في أي

شيء، يحسبون أنهم شرفاء لكنهم لا يسوون ظفري هذا". وأحنى **المحلق** وُسطاه في حركةٍ بذيئة، ضحك ضحكةً باكية وقال: "هيا اشرب يا **النور**، قدحٌ واحد لن يخرجك من الجنّة"، أحكم قبضته على ذراع صديقه، أدمعت عينا **النور** شفقةً على **المحلق** وفكّر أن يقوم ويتركه لكنه ثبت، "أنت الوحيد الذي يقف معي دومًا.. أولئك الجبناء ليسوا أصحابي أبدًا"، وسأل **النور** نفسه: "أهذا كله من أجلِ **تاجوج**؟ هل كان حُبًّا أم جنونًا". قال **المحلق**: "مرةً واحدة.. غدًا سيعود كل شيءٍ كما كان". ومال **النور** لكلام **المحلق** وتوسُّلاته وشرب حتى انتشى، وتذكّر **المحلق**، كيف نسي شيئًا كهذا، سنته الأولى مع **تاجوج** انتهت اليوم، وانكفأ متحسّرًا، لو كانت راضيةً عنه لكانت الآن تنتظره داخل القطية وترتدي ثوب القطيفة الزهري.

ومشى السكرانانِ معًا كلٌّ منهما يسند الآخر، الطريق مظلم والتراب كثيف ويوشكان أن يسقطا فيتماسكان، أحيانًا يفيقان تمامًا وأحيانًا يتمايلان دائخين، يلوح أمامهما طيف صبية صغار يقولون إن **الزعيم** أرسلهم إليه ويبشّرونه بأن **تاجوج** قبلت العودة إليه، يفترُ فم **المحلق** عن ابتسامةٍ عريضة بلهاء ويسأل **النور**: "هل تسمع؟ **تاجوج** قبلت الرجوع". فيتمتم **النور** بأنه قد سمع ويخبره الأولاد أيضًا أنها قبلت العودة بشرطٍ واحد: أن يَقصر شعره عليها فقط ولا يقول الشعر في أي شيء آخر في الوجود، نطّ **المحلق** وسقط على التراب وخرجت من صدره ضحكاتٌ فاترة وانصرف الأولاد في حال سبيلهم، وقال **المحلق**

ملتهبًا: "اليوم انتهت سنتي الأولى معها وستأتي معي لترى، سترى وستعذرني وتعرف أنني عندما كنت أقول الشعر في **تاجوج** كنت أقوله عن حق". فقال **النور** وهو يسند رأسه على كتف **المحلق**: "ماذا سأرى؟".

.

٧

عندما وصل السكرانانِ دار **الهاكين** وجداهُ في سكونٍ تام، ودبّ في **المحلق** شكٌّ أن يكون أولئك الأطفال هلوسةً من هلوسات السُّكر، دلف **المحلق** إلى الدار ومعه **النور** يترنّح، أجلسه **المحلق** خلف القطية وعالج له خرمًا يستطيع خلاله المشاهدةَ بوضوح و**النور** كالمُسيَّر يهذي ولا يعرف شرقه من غربه، ودخل **المحلق** إلى القطية ووجد **تاجوج** كالصبح المبين حقيقةً ماثلة، مشيته المتصلبة وعيناه كثيرتا الزوغان أشعرتا **تاجوج** بأن فيه شيئًا غير طبيعي، تحدّث معها حديثًا عاديًّا ولم يتفوّه بشيءٍ خطأ، جثى أمامها على ركبتيه خاشعًا في حرم جمالها قائلًا: "سامحيني يا **تاجوج**.. أخطأتُ في حقك، لكنني أُشهد الله أنني ما قلت ذلك الشعر محبةً في **نورا**، أعِدُك منذ اللحظة ألا أقول الشِّعْر إلا فيك". أشفقت **تاجوج** على وهنه وانكساره فأقامته وأجلستْه على البرش، أخبرها أنه جائع فحضّرتْ له ما يسدّ جوعه، قال لها بعد أن أكل حتى شبع وشرب حتى روي: "صبرتُ عامًا كاملًا واليوم أريد حقي كاملًا يا **تاجوج**.. أريدك الآن أن تقومي وترقصي عاريةً يا **تاجوج**.. هيَّا أنا مشتاقٌ لكِ". وأحسّت البنت بنغزةٍ في قلبها بعدما قاله **المحلق** وغيّم الإحباط عليها، لكنها قررتْ أن تثبت نفسها وأن تكسر غلاف البراءة الذي يغلفها، أن تتصرف كزوجة لأولِ مرّة، هي

تحبُّه كما يحبها وستفعل ما يطلبه حتى لو كان ذلك يزعجها، وفي تلك الأثناء كانت العفاريت تخرجُ من أوجارها والوحوشُ تفيق من نومتها ومنادٍ ينادي بين الخلائق: "إن **تاجوج** ستكشف الليلة عن جسدها". والأقدار تجري بدقةٍ كما رُسمت منذ الأزل، وبدأت **تاجوج** تخلع ملابسها عنها واشتدّ نداء المنادي وحُشرت الوحوش والعفاريت حول القطية وجاءت الحيوانات من كل صنف كأنها سفينة **نوح** على وشك الإبحار والحكاية تجري كما كُتبت، كشفت **تاجوج** عن كنوزها وأسرارها، ورقصت أمام **المحلق** كما خلقها الله، أشياءُ تهتزّ وتترجرج وأخرى تصعد وتهبط وامتلأت القطية عظمةً وجمالًا وضياءً، والمحلق وسط الوحوش والعفاريت والدواب كأنه ملك من ملوك الزمان يستعرض أبهى تُحفةٍ في الوجود، وانتبهت **تاجوج** لوجه **النور** المطل عبر خرم القطية فتوقفت عن الرقص وسألها **المحلق**: "لماذا توقفتِ يا حبيبتي؟". فقالت **تاجوج**: "سأواصل ولكن عندي طلب أخبرك به بعد أن أنتهي وعِدني بكلمة رجلٍ منك أن تنفذه"، "لو طلبتِ جبل التاكا ذهبًا وبوزنك عاجًا سأوفيك ما طلبتِه كاملًا وزيادة، فقط علي أن أقول: افتح يا سمسم"، وضحك. "كلمة رجُل؟"، فقال لها **المحلق**: "**المحلق** لم يكسر في حياته كلمةً له.. اطمئني". وواصلت **تاجوج** رقصها وميلها وعيناها تطفران دمعًا ولم ينتبه لدموعها أحد، وكان عندها وحمة بين ثديها أسرتِ الأنظار، فصمت الناطق وصاح الصامت.

عندما فرغت **تاجوج** من الرقص جلست قربه على البرش، اقترب منها **المحلق** (لبوس) شفتيها لكنها ابتعدت، وقالت له بغنج: "الآن يا حبيبي حان وقت تنفيذ طلبي"، "اطلبي يا **تاجوج** اطلبي"، "احلف أنك تنفّذه"، "والله العظيم أنفذه"، نظرت **تاجوج** لعينيه بإشفاق وقامت من جنبه وغيّرت وجهها وقالت له ضاغطةً على أضراسها ودموعها تحفر في خديها: "طلقني يا **المحلق**".

8

أسرابٌ من الغربان تطوف في سماء **عناتر** وتملأ السفوح والوهاد نعيقًا، وطلاق **المحلّق** وتاجوج عَم خبره ديار الحمران وما جاورها، **المحلّق** بقي عند كلمته وطلّق البنت ولم يُعثر له بعدها على أثر، تناقلت القطاطي الفضيحة حتى جاوزتها ووصلت ديار الشكرية والحقيناب، وصلت حدود الحبشة وجاوزتها إلى ديار البني عامر، الرشايدة جابوا بها الفلوات، **النور بن اللمم** رأى من **تاجوج** وبعلمٍ من **المحلق** ما لا يجب أن يراه إلا الزوج من زوجته، لزِم **النور** داره ولم يخرج منها، **تاجوج** قصّت على أبيها وأمها ما جناهُ **المحلّق** وأغلقت على نفسها قطية **أميرة** مرةً أخرى، حلف **الزعيم** هذه المرّة ألّا رجعة **لتاجوج** إلى **المحلّق** ولو أصبحت دواءه، **أم المحلق** طافت خلاء **زهانة** تبحثُ عنه وما وجدته، الأقوال حول الاتجاه الذي سلكه متضاربة، البعض يقولون إنه دخل الجبال وآخرون يقولون إنه غادر إلى الحبشة، وآخرون أقسموا أنهم رأوه في غابة **زهانة**، توسّلتْ **أم المحلق للزعيم** أن يرسل أعيانه لتفتيش ابنها لكنّ **الزعيم** رفض، و**رحمة** لازمت قطيتها خجلًا مما فعله أخوها، التكيّة لاكت السيرة حتى حفظتها جدرانها، و**التقاوي** و**ضريس** و**عيسى** **الهجّان** غابوا عنها وأصبحوا يجتمعون في بيت **عيسى**، أهم ما في القبيلة الشرف الذي لا توازيه صداقة أو محبَّة، كان **ضريس**

مغبونًا من **المحلق والنور**، استلّ سيفه وخرج للبحث عنهما لمجازاتهما بما فعلاه لكنّ **التقاوي** حجزه وزجر عنه الشيطان، كل شخصٍ يعدّل في القصة كيف شاء، غيابٌ تامٌّ من آل **الهاكين** وسكون رهيب يخيّم على دارهم، فاقت حكاية **المحلق وتاجوج** حكاية **عبير وحمّاد**، وتداولها الركبان والمسافرون، وشُربت على سيرتهما القهاوي والخمور، وكل قصّة تنجب قصة.

في المساء دخلتْ على **أم تاجوج سكينة** أمّ **ضريس**، هوّنت عليها مصيبتها ورمت لها الكلام تلميحًا وتصريحًا، وقالت لها: "ما حصل قضاء وقدر.. والقسمة لا تفوت صاحبها". أجابتها **حفصة**: "أحمد الله أن انتهى هذا الزواج أخيرًا، منذ البداية ما ارتحتُ لهذا **المحلّق**". وقالت **سكينة**: "الحمد لله على ما أراد يا **حفصة**.. الآن وبحكم أن **تاجوج** لا تزال صغيرة وحرامٌ أن يضيع شبابها حزنًا وبكاء، جئتُ لأطلب يدها إلى **ضريس** ابني على سنة الله ورسوله يا **حفصة**، فوالله لا أظنها ستجد من يقوم عليها كزوجٍ مثل **ضريس**". قالت **حفصة**: "**ضريس** زينة شباب الحمران ولا ترفضه بنت يا **سكينة**، فارس مكمّل والكمال لله... لكن **تاجوج** الآن لا تقوى على الدخول في علاقةٍ أخرى.. أظنها تحتاج البقاء وحدها قليلًا". ودخلت عليهما **أميرة** قائلةً بصوتٍ واضح: "**تاجوج** حلفت ألا يدخل عليها رجلٌ بعد **المحلق** إلا **النور بن اللمم**".

9

أرض **الفيل** تقوم وتقعد على سيرة **تاجوج**، **النور بن اللمم** هو صاحب البخت وسينعم بجمال **تاجوج** كما لم يتسنّ **للمحلق**، وقالت **تاجوج**: "أتزوّجته لأنه رأى ما لا يحق له أن يراه". ولم تقل لأحد أنّ زواجها مكايدةٌ في **المحلّق**، وحدها تعرف ذاك الغرض ومن أجله سعت، ومضى يومان و**المحلّق** لا أثر له ولا خبر، أمه انزوت في دارها مأروقةً محزونة يشتعل حشاها كمدّا وحسرة، الخبر وصل **النور** في داره وهو في حالةٍ لا تُحزن صديقًا ولا تسر عدوًّا وقالت له أمه العمياء: "تزوّجها ينالك فضل الحسب والنسب.. تزوّجها واسترها ينالك رضاء الله"، و**النور** لا يتكلّم مع أحدٍ ولا يستطيع التفكير فيما سيختار، كل شيءٍ حصل بسرعة وانقلبت الدنيا فوق رأسه بين ليلةٍ وضحاها، وأمه تؤزّه قائلة: "البنت في بداية عمرها كالوردة حرامٌ أن يضيع شبابها". واحتشدت في رأس **النور** ذكرياته مع **المحلق** منذ طفولتهما وحتّى الآن، كيف سيكون منظره أمام **المحلق** وهو يتزوّج حبيبته؟ كيف يكون أمام الأصحاب وروّاد التكيّة؟، لو أنه يستطيع العودة بالزمن قليلًا، لليلةٍ واحدة، لما خرج وراء **المحلق**، "ذنبها في رقبتك إلى يوم الدين لو لم تتزوّجها يا **النور**". وقرّرَ **النور** ساعتها أن يختار.

10

صباح اليوم التالي صحا **الزعيم** على مصيبة السطو على القافلة، جاءه **عليٌّ** في قطيته يخبره أنّ أمينَ قافلة الأسلحة عند الباب، دخل الأمين منكسرًا وبدأ الاعتذار **للزعيم**، لكن **الزعيم** اختصره قائلًا: "ما الذي حصل؟ ومن نهب القافلة؟". قال **الأمين**: "إنهم الهدندوة يا سيّدي". وتساءل **علي**: "كيف عرف الهدندوة بالطريق الذي سلكتْه القافلة؟". وقام **الزعيم** على طوله كالطود وصاح بهما: "لا أحد غيرنا الثلاثة يعرف بهذا الطريق". قام **علي** من فوره: "أتشكك في ولائنا يا أبي؟". وقال **الزعيم**: "هل تكلّمتما بأمر هذه القافلة أمام أحد؟"، فقال **علي**: "أصحابي فقط من يعلمون". وضرب **الزعيم** كفًّا بكف قائلًا: "آخر الزمان يصبح بين الحمران خونة". وأشهر **علي** سيفه للحاق بأصحابه الذين كانوا في التكيّة إلّا أنّ **الزعيم** انتهره بأن يتوقّف وقال: "الليلة ليلةُ فرح **تاجوج**.. تظاهر كأنّ شيئًا لم يحدث". دقات النحاس وأنغام الربابات وغناء البنات يملأ دار **الهاكين**، **تاجوج** تتجهّز في قطيتها تهيُّؤًا للزفّة، بخّرتْها **أميرة** بالكندر درءًا للعين وارتدت فستانًا برتقاليًّا مزركشًا وثوبًا أحمر مزخرفًا باللون الذهبي، نُقش ذراعاها بالحنّاء و(شالت) لها **أميرة** جسمها بالحلاوة و**تاجوج** وجهها جامدٌ كالقناع، قالت لها **أميرة**: "ابتهجي يا **تاجوج**، إذا راح واحد جاء بعده ألف واحد.. آخرها

كوم تراب". **حفصة** زغردت بطول حسّها وأم **النور** العمياء كانت تغنّي مع البنات كأنها بنت عشرين، والنوق المزيّنة مرصوصة أمام الدار محمّلة بالثياب والعاج والذهب والفضة مهرًا من النور، وحَلَّق خبر زواج **النور** و**تاجوج** وغطّت سيرته **أرض الفيل** كلها، **ضريس** مقبوض الصدر إلا أنه يتظاهر بالابتهاج و**التقاوي** و**البجاوي** و**الهجّان** جاؤوا مهندمين استعدادًا للزفّة، وأم **المحلّق** كانت في بيتها تلعنهم وكبدها يتفطّر حزنًا على ابنها، مرّ يومان ولا خبر عن **المحلّق**.

تاجوج تُطالع مرآتها المدورة ذات المقبض العاجي، الجميع حولها سعداء لكن لا أحد يعلمُ ما في قلبها، إلا **أميرة** والتي كانت قريبةً منها، ربّتت على كتفها وقالت: "ستنسينه.. **النور** رجل وفي الرجال قليل"، ورفعت المبخر تبخّرها وقالت لها **تاجوج**: "كفى يا **أميرة**"، فردّت لها **أميرة**: "العين تُدخل الجمل القدر يا **تاجوج**.. يا حافظ يا حفيظ". وأخرج **علي** ربابة الهدندوة (شيقات) التي غنموها في معركة ناقة **صبيحة** وجعل يعزف بها اللحن المقدس للقبيلة (شبابيت) تعبيرًا عن غضبه من الهدندوة.

دخل على **الزعيم** في قطيته شابٌّ من الحقيناب وأخبره أن عوائل الحمران عرفوا بخبر سطو الهدندوة على الأسلحة وأنهم يريدونه في اجتماعٍ مهم يخص أمن القبيلة مساء اليوم في بيت الشيخ **نورين**، واستغرب **الزعيم** هذه الدعوة في ذاك المكان وقال لرسول الحقيناب: "قلبي يحدثني أن ذاك البيت بيت غدر،

لكنّ مصلحة القبيلة فوق كل شيء، أخبرهم أنني في الموعد وسأفوّت من أجله زفّة **تاجوج**".

ونزل الليل حاملًا معه الأقدار الجديدة وآن للزفّة أن تبدأ، وجاء **النور** في جلابيّة ناصعة البياض يحمل سوطَ العنج وزُفّت إليه **تاجوج** وسط غناء البنات والرقص ومشى قربها يبشّر بالسوط، قدّم الرجال حركاتٍ استعراضيّة بالجمال على أضواء النيران وعُقرت ناقةٌ أمام رجلَي **تاجوج** ومشت على دمها، جابت الزفة شوارع القرية قاطبة، وأضيئت الطرقات بالمشاعل وسروج الزيت، ولمّا مروا ببيت **أم المحلّق** فتحت شُبّاك القطية قليلًا وجعلت تسترق النظر إليهم وعيناها قد جفّ دمعهما من البكاء وقالت: "لو يظهر **المحلق** الآن ويخرّب كل شيء!". وفاتت الزفّة بيتها مواصلةً هجيجها وعجيجها وطربها، الشباب بجلاليبهم البيضاء يحيطون بالبنات بثيابهن الليمونية والصفراء والحمراء والخضراء، وغنّت **أميرة** حتى بُح صوتها ورقصت **تاجوج** كما لم يرقص أحدٌ قبلها في الوجود.

وفجأة، بينما الجميع يرقصون ويطربون، يُدوّي انفجارٌ كبير فوق سماء **عناتر**، يتسرّب الهدندوة بالأسلحة الناريّة إلى داخل القرية دون أن يُحس بهم أحد، وتُدوّي انفجاراتُ مَدَافع عديدة حول ديار الحمران والهدندوة يعيثون في الديار خرابًا. ينفرط عقد الزفّة ويتجارى الناسُ يمينًا ويسارًا، النيران تشب في القطاطي، ويطلق **علي التقاوي** لحن الكريكوا بربابته، وهناك في بيت الشيخ **نورين** يدخل **الزعيم محمد علي الهاكين** وقلبه

يتوجّس، يرى خمسةً من الرجال يحيطون به، يتلقّى طعنةً في صدره من **الشيخ أبي سهمين** ويتوالى البقية في شكِّ الرماح في لحمه، **أوهاج البجاوي** يدخل بيت **الهاكين**، قطية **الزعيم** بالتحديد، يرفع الربابة (شيقات) برهبةٍ وخوف، يتسلل خارجًا، يبدأ في الركض، صوتُ **علي الهاكين** ينزل عليه كالصاعقة فيتعثر ويسقط أرضًا، يقول **علي** :"أنتَ من أخبر الهدندوة بالطريق الذي سلكته القافلة.. أنتَ الخائن يا **أوهاج**"، واندفع **علي** نحوه ليشقه إلى نصفين وقبل أن يصله يستلّ **أوهاج** سكّين ذراعه ويدسّ نصلَها في كتف **علي**، يعاجله عليٌّ بطعنةٍ في بطنه ويلفّ السيف مقطّعًا أحشاءَه يقول أوهاج والدم يبقبق من فمه وأنفه: "في سبيل القبيلة.. كنت أظنهم سيغفرون لي.. إذا.. إذا أخبرتهم بطريق القافلة وأرجعت لهم (شيقات)"، ومال عنقه.

***

وفي حلكة الليل بعد أن هدأ كل شيء وبردت سماء **عناتر** بدأتْ تُفتَح الأبواب.

أم المحلق تفتح باب بيتها لترى الخراب الذي عمّ ديار المحمّداب، **أبو سهمين** يفتح باب بيت الشيخ **نورين** ويخرج ومعه الأربعة يحملون جثّة **الزعيم**، **أميرة** تفتح باب دار آل

الهاكين لترى مَن الطارق وتُفاجأ بأنه **شانشروت الحرامي**، **نورا أم شليخ** تفتح باب دارها ليطل عليها وجه **المحلّق** ضامرًا مظلمًا، عرفت بعد أن أدخلتْه أن **تاجوج** ذهبتْ بعقله وفقده إلى الأبد، **تاجوج** تفتح باب قطيتها **للنور** المُنهك المُعفّر بالتراب، **رحمة** تفتح باب قطيتها وهي تحمل أحد التوأمين وهو يصرخ **وعلي** أمامها محزونٌ مكسور يحتضنُ الربابة (شيقات)، الباب الوحيد الذي لم يُفتح تلك الليلة وظل مُغلقًا إلى الأبد هو باب التكيّة.. تكيّة **البجاوي**.

مُلحق الصور

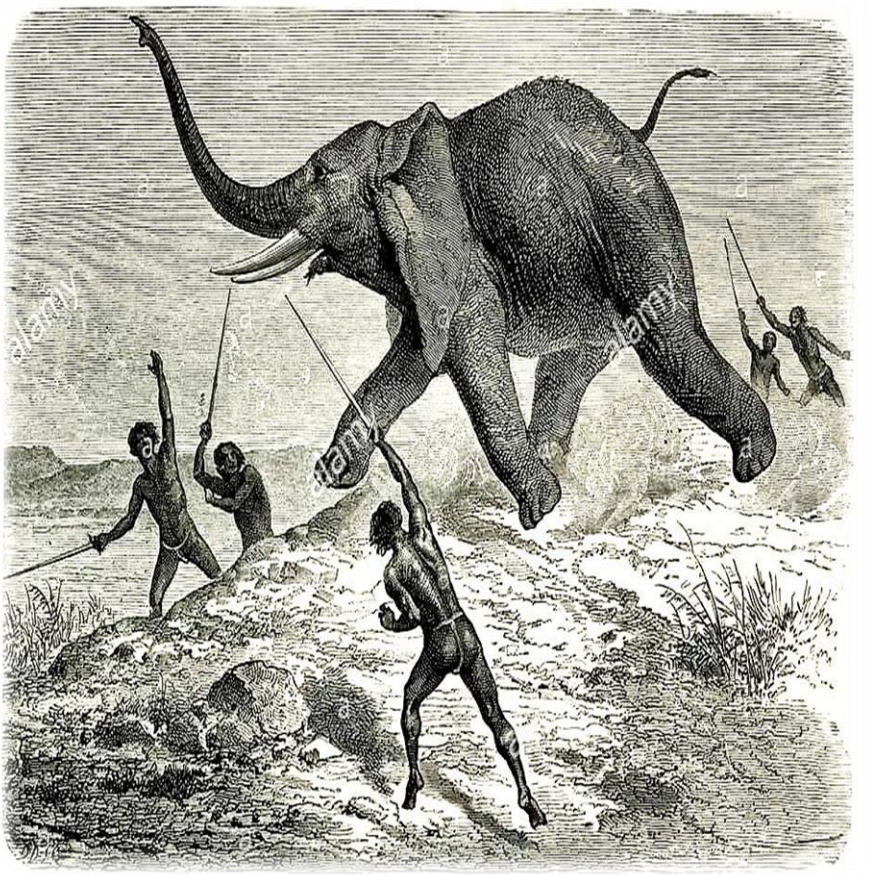

صيد الحمران للفيلة عن طريق السيوف

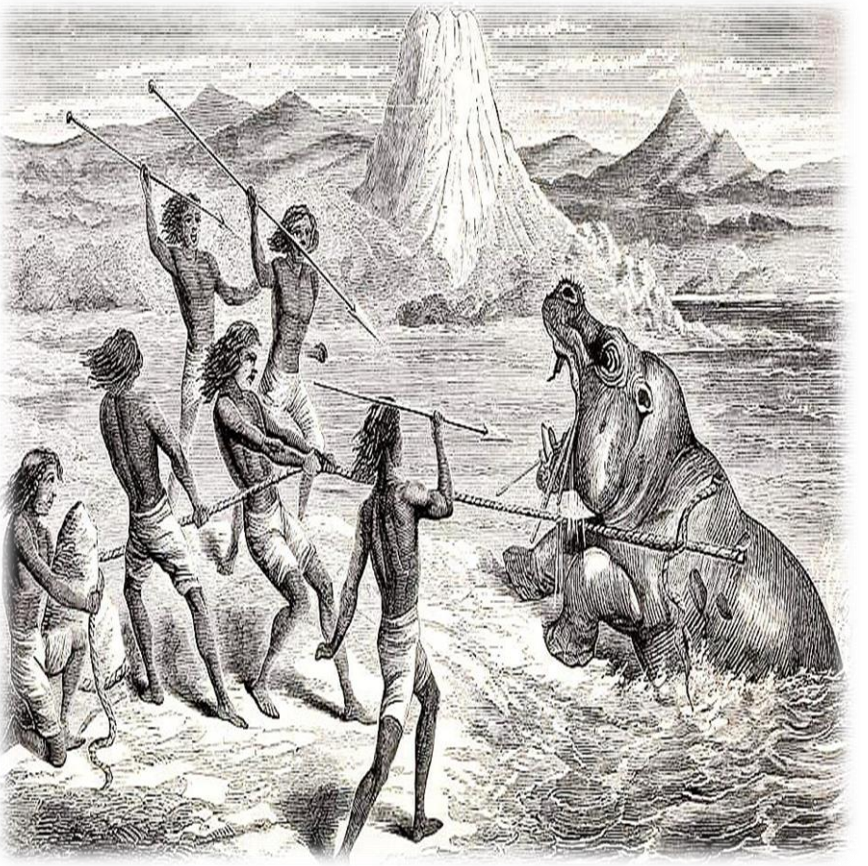

اصطياد فرس النهر عن طريق الحراب

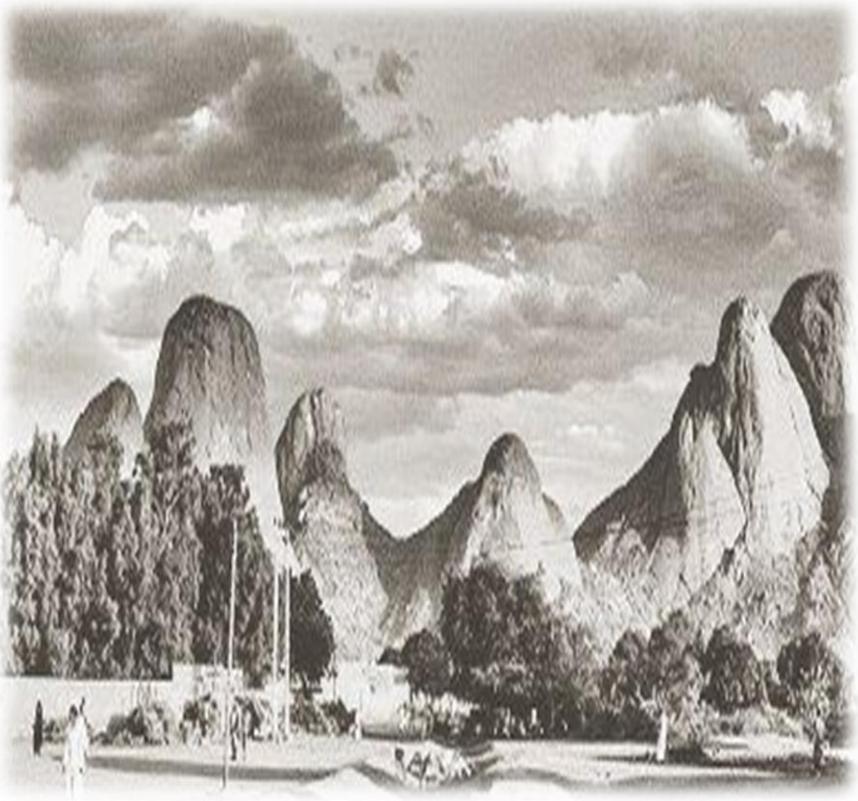

جبل التاكا في كسلا (أرض الفيل في الرواية) والذي نُسجت حوله القصص والأساطير .

البجا

الصحفي **عزمي عبد الرازق** يقف على قبر **تاجوج** والذي أصبح مزارًا اليوم يقصده الأزواج للتبرك بعد الزواج وختان الأبناء، قرب جبل التاكا بعيداً عن أرض الحمران، وهو المكان الذي قُتلت فيه أثناء ارتحالها مع أهلِ أمها لأداء واجب العزاء في خال أمِّها ناظر البني عامر، اعترض الهدندوة طريقهم وقتلوا رجالهم وسبوا نساءهم، وتعاركوا فيمن يظفر **بتاجوج** حتى اقتتلوا فينما بينهم، ولما أوشكوا أن يقضوا على بعضهم قام كبيرهم بتوجيه طعنةٍ نجلاء إلى صدر **تاجوج** فسقطت صريعة.

مصادر الصور

- The Nile tributaries of Abyssinia , Sir Samuel Baker.
- Ultrasudan.com

الشُّكر

إلى **عائشة الشيخ**، "أمينة مكتبة السودان القومية"، وهي تيسِّر لي العثور على المواد الخام لتشكيل هذا العمل.

منشورات عندليب
للطباعة والنشر والتوزيع
www.3ndleeb.com